أغنية يناير

ثوار ومزيفون

محمد العسيري

«مافيش في الأغاني

كده ومش كده !»

فؤاد حداد

مكتبة جزيرة الورد

obeikandl.com

بطاقة فهرسة

حقوق الطبع محفوظة

مكتبة جزيرة الورد
اسم الكتاب : أغنية يناير ثوار ومزيفون
المؤلف : محمد العسيري
الغلاف : الفنان مدحت عبد السميع
جرافيك : أيمن مرتضى
تنفيذ : حسام عنتر
رقم الإيداع : 2011 / 10486

الطبعة الأولى ٢٠١٢

مكتبة جزيرة الورد
القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل
ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٤٠٤٦ـ٢٧٨٧٧٥٧٤
Tokoboko_5@yahoo.com

obeikandl.com

إهـــــداء

إلى فاضل.. وفارس
ثورتي التي تمشي في ظلي
يقيني الذي لا يقبل التزييف

العسيري
فيصل في ٣١ ديسمبر ٢٠١١

obeikandl.com

بدون مقدمات

مثلما خرج المصريون فى ٢٥ يناير فى نظر كثيرين- بدون مقدمات.. خرجت هتافاتهم فى المظاهرات بدون مقدمات.. وتعالت حناجرهم بالغناء طيلة العام الماضى بلا مقدمات.. ولهذا أرى أن هذه الصفحات لا تحتاج إلى مقدمات معتادة..

يمكننى أن أقول إن الأحداث الكبرى دائمًا ما تسبقها أغنيات كبرى.. وتتبعها كذلك.. ويمكننى الاستعانة بمقولة شهيرة للزعيم هوشى منه تقول بأن الشعوب التى تحسن الغناء لا تحسن الغداء.. ويمكننى القول بأن الغناء لا يصنع الثورات لكنها تصنعه.. ويمكننى أيضًا أن أجزم أن أغنية يناير لم تكن على مستوى ما جرى فى بلادنا.. لكن ذلك كله سيكون أمرًا سابقًا لأوانه.. وبه من الفوقية ما يرفضه الغناء ذاته..

الأمر ببساطة أننى ومنذ زمن أرصد غناء المصريين فى ظل حالاتهم.. وأنتظر أن يتعامل العرب مع هذا الفن باعتباره علمًا لا؟ أو نوعًا من التسلية الحلال مثلما هو الحال فى معظم دول العالم التى تقوم بتدريس الغناء فى علوم الدراسات الإنسانية.. وبعضها يقرأ تاريخ مدنه ودوله وساسته من خلال ما تبغيه الشعوب.. وفى سبيلى إلى ذلك توقفت كثيرًا أمام حالة الاتحاد والاغتراب ما بين غناء السلطة وغناء الناس.. والحالات القليلة التى تقاربت فيها أغنية الحاكم مع أغنية المحكوم هى فى الغالب حالات ثورية..

من هنا جاءت فكرة هذا الكتاب الذى يرصد لحظة بلحظة تفاعلات ما جرى فى يناير.. وحتى الآن.. ليس توثيقًا فهذا ما لا أدعيه.. ولكنها حالة رصد وتحليل بسيط لما تكشف عنه الأغنية السياسية التى أخرجها الثوار والمتحولون وأبناء الثورة المضادة أيضًا.. ومن الطبيعى أن نختلف حول هذا الغناء طالما وجد من يختلف حول فكرة الثورة نفسها.. ولأن الأمر برمته مازال ساخنًا.. فمن الطبيعى أن نؤجل القراءة التحليلية الأعمق.. والتوثيق الأكثر دقه لمشروع أكبر أسعى لإكماله قريبًا عن تاريخ مصر فى مائة عام من خلال الأغنية السياسية التى ألفناها وغنيناها ونسيناها فى بعض الأحيان منذ حادثة دنشواى وحتى ميدان التحرير..

محمد العسيرى

obeikandl.com

عبد الحليم لم يكن مطرب الثورة!

obeikandl.com

انتظرت ٧٠ يوماً كاملة حتى أتمكن من الاستماع إلى ٦٠ أغنية صدرت منذ اندلاع أحداث يناير التى اتفقت الأغلبية على أنها أعظم ثورات مصر فى العصر الحديث. ستون يوماً كاملة وأنا أتنقل من رامى جمال إلى سلمى صباحى إلى عمرو دياب إلى حمادة هلال إلى أبوالليف.. وغيرهم من مطربين وأشباه مطربين.. جميعهم ركبوا بحر الثورة.. منهم من رسا.. ومنهم من لا يزال يناطح الأمواج.

الآن.. أصبح هناك بصيص من وعى، وقدر من نور، يسمح بأن نسمع.. وأن نرى، وأن، نكشف.. والآن فقط ونحن نحتفل كعادتنا من سنوات بذكرى وفاة العندليب عبدالحليم حافظ الذى أراد البعض له أن يشارك رغماً عن إرادته فى أحداث يناير.. حتى إن بعض زملائنا وصفوه بأنه مطرب الثورتين. (-) الآن فقط أقول إنه لم يكن أصلاً مطرب الثورة الأولى حتى يكون مطرباً للثانية.. مثلما هو الحال فى معالجات كثيرة جرت فى الأيام الماضية تشبه مغالطات أمريكا فى إدارتها للمشهد العراقى بعد

وإذا كانت السياسة تحمل قدراً كبيراً من الألغاز لا يعقل أن نكتسيه [illegible] على شاطئ النشوة بما سميناه الثورة.. فإن مغالطات الفن يمكن [illegible] مقدمتها أن أغنية يناير تافهة.. وغير عميقة.. وأن هذه الثورة لم تبدع [illegible]

ومطربيها.. كما قال زميلنا أيمن الحكيم أو زعم الكاتب كرم جبر وهو يبحث عن أغنية للثورة تشبه أغنيات حليم وصلاح جاهين وكمال الطويل.. أو كما هو الحال مع ما ادعاه الزميل يسرى فودة فى أوائل أيام لثورة بأن فترة مبارك كاملة لم تكن بها أغنيات سياسية.. وهو ما وافقه عليه فجر أحد تلك الأيام زميلنا المبدع الجميل محمد الغيطى. كل تلك المغالطات هى التى دعتنى لكتابة هذه السطور ضمن مشروع أكبر لتوثيق أغنيات مصر السياسية من دنشواى إلى ميدان التحرير.

هذه السطور تتعرض – مؤقتا – لأغنية يناير.. ما لها وما عليها.. وحتى نفهم علينا أن نعود إلى أغنيات يوليو٥٢.. نعم.. إلى يوليو وليس إلى يناير.

أولى المغالطات التى كتبها كثيرون أن عبدالحليم كان مطرب الثورة.. وهذا ليس صحيحاً على الإطلاق.. فقد كان الرجل مطرباً لعبدالناصر.. وأولى أغنياته فعلاً كانت عقب انتخاب عبدالناصر عام ١٩٥٦ كرئيس للجمهورية.. من كلمات إسماعيل الحبروك.. وهى أغنية «إحنا الشعب» . وهى الأغنية التى تقر نصاً بزعامة ناصر.. وتقر رئاسته وتدعم ذلك.

«إحنا الشعب.. إحنا الشعب
اخترناك من قلب الشعب
يا فاتح باب الحرية
يا ريس يا كبير القلب».

لا يعنى هذا أننى ألسّن على الراحل الجميل أو أتقوّل عليه.. فعلاقة حليم بالثورة من

المؤكد أنها بدأت قبل ذلك.. ومن المؤكد أيضاً أنه – كما قالت التايمز البريطانية – أحد الأسلحة التى استخدمها عبدالناصر فى نشر مبادئ الثورة فى نفوس المصريين والعرب.

لقد بدأت علاقة حليم – حسب مذكرات إيريس نظمى – قبل الثورة بـ ٥ شهور، عندما التقى بصلاح سالم فى منزل شقيقه محيى سالم الذى كان صديقا لعبدالحليم الذى كان اسمه وقتها عبدالحليم شبانة.. وفى نوفمبر ١٩٥٢ أى بعد قيام الثورة بخمسة أشهر كاملة. ذهب عبدالحليم إلى مقر قيادة الثورة فى الجزيرة والتقى صلاح سالم الذى قدمه لعبدالقادر حاتم والسادات وعبدالحكيم عامر وعبدالناصر.. فى تلك المقابلة التى استمرت نصف ساعة استمع حليم جيداً للقادة.. وأدرك بذكائه المعروف أن الرجل الذى يريده هو ذلك الشاب الأسمر الصعيدى.. الذى اكتشف أنه يتابعه وأنه يعرف ما حدث له فى الإسكندرية.. قالها له عبدالناصر بحدته وصراحته المعروفة «الناس عندما ضربتك بالطماطم لم تكن ترفض صوتك.. لكنها كانت ترفض الجديد الذى تقدمه»..

بعدها لعبت الصدفة دورها حينما أعلنت الثورة إلغاء الملكية قبل ساعة واحدة فقط من صعود حليم لمسرح الأزبكية فى أولى حفلاته التى تصادف أنها كانت للاحتفال بأول أعياد الثورة!! يومها لم يغن عبدالحليم أغنيات وطنية.. لكنه غنى أغنياته التى سبق أن رفضها جمهور الإسكندرية – صافينى مرة وأخواتها من كلمات سمير محبوب وألحان محمد الموجى – وكانت حفلة الميلاد.. ميلاد حليم وميلاد الجمهورية كما قال يوسف وهبى وهو يقدمه على المسرح.

البعض سيقول لك: لا.. لقد غنى عبدالحليم أغنية وطنية قبل ذلك الوقت.. وهذه حقيقة لكنها ليست مكتملة.. فقد كانت هناك أغنية مشتركة مع مطربة اسمها

عصمت عبدالعليم والمجموعة غناها حليم بصوته فقط فى خلفية مشاهد فيلم «اللص الشريف».. الأغنية من كلمات شاعر اسمه محمود عبدالحى، وألحان عبدالحميد توفيق زكى الذى لحن لحليم ثلاث أغنيات وطنية مجهولة إحداها للزعيم محمد فريد كتبها عبدالوهاب الحناوى.. وثانية من كلمات صالح جودت فى ذكرى مصطفى كامل، وأخيراً «موكب النور» من أشعار إبراهيم ناجى.. وهى أغنيات من إنتاج الإذاعة عقب اعتماد حليم عام ١٩٥١ بقصيدة لقاء لصلاح عبدالصبور وكمال الطويل.

نعود إلى أغنية حليم مع عصمت عبدالعليم والتى تسمى أحيانا «شعار العهد» أو «نشيد العهد»، لأنها كانت تتضمن شعار «الاتحاد والنظام والعمل» والمقطع يغنيه حليم يقول:

«وشباب النيل للنيل نداء
يبذل الروح له بذل السماء
وشعار العهد من نور الأمل
اتحاد ونظام وعمل»..

وكان هذا هو الشعار الذى أطلقه محمد نجيب ليلتقطه مخرج الفيلم ويلصقه فى أغنية مصنوعة بعيداً عن مضمونه تماماً، ولكن تركوب الموجة مثلما هو الحال فى نصف أو معظم الأغنيات التى استمعنا إليها خلال الفترة الماضية.

أقول هذا حتى لا نظلم أصحاب الحق.. من غنوا منذ اللحظة الأولى للثورة فى يوليو.. وهم بالترتيب كارم محمود الذى غنى من كلمات حيرم الغمراوى وألحان أحمد صدقى «موكب التحرير».. وبالمناسبة حيرم العمراوى كتب ١٢٠ أغنية وطنية أشهرها «من فوق

برج الجزيرة» لعبداللطيف التلبانى.. وكان عضواً فى مجلس الأمة.. ورئيساً لتحرير جريدة الجمهورية.. ثم غنى بعده مطرب جميل كان معروفاً وقتها اسمه أحمد عبدالله أغنية «ما خلاص اتعدلت» من كلمات مصطفى السيد والحان عزت الجاهلى ثم غنى شفيق جلال «البر أمان».. أمل الحرية نعيش إخوان».. ثم غنى إسماعيل ياسين» ٢٠ مليون وزيادة».. ثم عبدالوهاب «نشيد الحرية».. ثم محمد قنديل فى ٣ أكتوبر ١٩٥٢ الساعة ٦,٣٠ صباح الجمعة، اللحن الأشهر فى تاريخ ثورة يوليو «ع الدوار» من كلمات حسين طنطاوى وألحان أحمد صدقى.. وبالمناسبة حسين طنطاوى هذا هو مؤلف أغنية «رمضان جانا».. هذه الأغنية التى أصبحت عنوان الثورة على مدار ٦٠ سنة.. كانت هى الأعمق والأكثر قدرة على مخاطبة جماهير يوليو بكل فئاتهم.

«يا للى فى قاعة.. يا للى فى خص
قوم دى الساعة تمانية ونُص
والراديو ساعه أما يرُص
فى الاخبار قلبك يتهنى
كنا فى نار وبقينا فى جنة
واللى ظلمنا بقى فى النار».

هذه المعانى والمبادئ الرئيسية لأى ثورة لأى شعب حر كانت هى المفتاح لفهم طبيعة هذه الثورة التى قام بها جيش.. وساندها شعب:

«من يوم جيشنا ما شن الغارة
على عُزّالنا بكل جسارة
وإحنا يوماتى تجينا بشارة
الجرانين بترد الروح
وتداوى القلب المجروح
خير وجايلنا بالقنطار
ع الدوار».

لغة الكتابة وعمومية الفكرة وروحها الشعبية التى وجدت لحناً شعبياً يغوص فى تربة مصر مع صوت قالت أم كلثوم إنه أجمل من غنى من الرجال.. كل ذلك ضمن لهذه الأغنية أن تكون أغنية يوليو ويناير وكل شهور السنة.. وكل سنة.

أقول ذلك لا لأنفى عن عبدالحليم أنه مطرب الثورة.. ولكن لأقول إن صلاح جاهين والطويل والأبنودى وسيد حجاب وفؤاد حداد وغيرهم من شعراء وملحنى ومطربى يوليو العظام لم يبدأوا مع بشائر الثورة.. ولكن بعد أن نمت واستقرت وانتصرت وفهم الناس —معظم الناس — أنها لهم.. وليست عليهم.. ولهذا تبدو مطالبة شعراء يناير وملحنيه ومطربيه بأغنيات تحمل نفس عمق ورؤية وجماليات أغنيات ثورة يوليو نوعاً من العبث ورغم ذلك هناك شعراء ليناير.. وملحنون.. ومطربون سنتحدث عنهم وعن آخرين وقعوا فى فخ التحرير.. وعمّن نجا من المحرقة.. من اتهم بالتحول والتلون.. ومن نصبوه زعيماً وحولوا أغنياته إلى رنات موبايل.. الأسبوع القادم نكمل.

obeikandl.com

obeikandl.com

شيرين مطربةالعهد البائد!

obeikandl.com

للأبنودى قصيدة جميلة، يقول فيها «طول عمرهم عالمين.. العالم الأول.. والعالم التانى.. واللى انتمنى.. انتمى.. واللى انتهى انتهى».. وما بين شيرين عبدالوهاب وأم كلثوم عوالم شتى مختلفة.. لكننى وجدتهما معا فى ميدان التحرير وفى محاكمات الثورة.بدأت بشائر كتائب التخوين تظهر على شوارع الفضاء الإلكترونى، لتجد نفسها متهمة بالغناء للعهد البائد وبأنها ضد الثورة لأنها سبق أن غنت لنظام مبارك عددا من الأغنيات كانت أكثرها ارتباطاً بذلك النظام أغنية «ريّسنا» التى غنتها عقب عودة مبارك من رحلة علاجه الشهيرة فى ألمانيا.

هنا فقط ضاقت مساحات العالم المتباعدة، واختلط العالم الأول بالعالم الثانى، وصارت بين أم كلثوم وشيرين عبدالوهاب مشتركات كثيرة فى مقدمتها وأهمها على الإطلاق لقب «مطربة العهد البائد».

التاريخ يعيد نفسه نعم، لكننا نعيد أخطاءنا أيضا.. نعيد كتابة صفحاته بنفس الطريقة.. ونصر على تطبيق الكتالوج بكل صفحاته دون أى حساب لعامل الزمن أو الوعى أو التكنولوجيا التى صنعت معظم أحداث التغيير فى العالم مؤخرا، ومنها ثورات الفيس بوك!!.. وبنظرة قليلة للوراء تكتشف أنه وبعد شهور قليلة من خلع الملك فاروق فتحت الصحافة الصندوق الأسود لثرواته.. هتكت حرمة القصور الملكية، التعبير ليس لى ولكن لمجلة «أيام مصرية – وتجولت عدسات المصورين فيها حتى وصلت إلى مخدع الملك وعبثت بأغراض الملكة.. وكانت الحملة التى قادها رجال ثورة يوليو على الملكية عنيفة حتى أنها أسقطت كل هيبة كانت باقية فى ذاكرة المصريين للملك فاروق الأول الذى عادت لميس جابر لتقدمه لنا بعد خمسين سنة فى مسلسل شهير باعتباره بطلا قوميا وبأن أيامه هى النعيم بذاته.

وبعدوانية شديدة تعامل ضباط صغار من أبناء يوليو مع كل ما يخص الملك فاروق، حتى تلك الأغنيات التى شدت بها أم كلثوم له ولأيامه، فتم منع إذاعة أغنياتها وتم طردها من نقابة الموسيقيين بقرار من الضابط المشرف على الإذاعة، واعتبروها من بين عناصر الثورة المضادة لأنها حصلت على قلادة صاحبة العصمة وغنت للملك أكثر من مرة.

كان السياق الذى جرى فيه ذلك الأمر طبيعيا وقتها، لدرجة أن مصانع صابون شاهين التى كانت تنتج صابون نابلسى فاروق شاهين أزالت من إعلاناتها اسم فاروق ليصبح اسم الصابونة من بعدها نابلسى شاهين فقط.. ألا تجدون فى أمر الصابونة شيئا مما يحدث الآن من إزالة لأى شيء يحمل اسم مبارك.. وفى ما حدث مع أم كلثوم شيئا مما يحدث مع شيرين عبدالوهاب؟!.

فى ٥٢ كان هناك جمال عبدالناصر الذى غضب بشدة حينما علم بما جرى لمطربته المفضلة، وقال لمحدثه «إذا كانت أم كلثوم من العهد البائد فالهرم من العهد البائد أيضا ويجب أن يزال فورا».. وأرسل الزعيم وفدا إلى أم كلثوم ليصحح ما جرى ويطلب منها الانضمام إلى اللجنة التى اختارت السلام الوطنى الجديد للجمهورية فى ١٩ ديسمبر ١٩٥٢.

لم تكن علاقة ناصر بأم كلثوم مجرد علاقة زعيم وطنى بمطربة قالت عنها فيرجينيا دانيلسون إنها صوت ووجه مصر.. لكنها كانت علاقة خاصة أيضا - ماتسرحش بعيد مش خاصة زى الكلام اللى بيتقال عن علاقة إيمان الطوخى بمبارك - وقد أعربت أم كلثوم عام ١٩٤٨ عن تأييدها للجنود المصريين الذين حاربوا فى سيناء، وبعد الهزيمة التى وقعت فى الفالوجا دعت جميع أفراد الكتيبة التى حاربت هناك لحفل استقبال فى بيتها، وأقحمت نفسها فى خلاف مع وزير الحربية آنذاك بسبب ذلك..

وقد كانت وجهة نظره - الوزير يعنى - أنه وبعد الهزيمة وانفجار فضيحة الأسلحة الفاسدة لا مجال لأى احتفالات.. وكان أن ردت أم كلثوم بقولها «لقد قدمت الدعوة

فإذا أردت أن تأتى فأهلا بك وإذا لم ترد أن تأتى فأنت حر، أما بخصوص الآخرين فقد دعوتهم لأعبر عن تقديرى كمواطنة مصرية لنضالهم وتضحياتهم فى سيناء».. وكان عبدالناصر ممن حاربوا فى الفالوجا وممن حضروا إلى بيتها أيضا ليصبحا صديقين بعد ذلك حسب د.نعمات أحمد فؤاد التى تؤكد أنه كان يدعوها إلى بيته مثل أحد أصدقاء الأسرة الحميمين لتناول طعام الإفطار أول أيام شهر رمضان، وجميعنا يعرف باقى القصة بعد ذلك بدءا من غنائها فى ديسمبر ٥٢ «مصر التى فى خاطرى وفى فمى»، مرورا بغنائها لجمال شخصيا «يا جمال يا مثال الوطنية» فى عام ٥٤ وحتى «ارجع فأنت الشعب الباقى» بعد التنحى.. وليس نهاية بحفلاتها للمجهود الحربى التى طافت فيها العالم وجمعت من خلالها حسب كتاب فيرجينيا دانيلسون الذى ترجمه عادل عنانى «١٨٦ ألف جنيه استرلينى من حفلاتها الخارجية و٥٢٣ ألف جنيه مصرى من حفلات المحافظات».. وظلت على موقفها من عبدالناصر والثورة حتى رحلت فى عام ٧٥.

نعود إلى شيرين عبدالوهاب وعلاقتها الملتبسة بالنظام السابق.. حتى نفهم تلك العلاقة التى لم تتعد مجرد أغنية يتيمة وليست ١٧ أغنية مثلما هو الحال فى أغنيات أم كلثوم للملك فاروق وبناته، حتى إن أغنية «يا ليلة العيد آنستينا» التى غنتها فى عيد جلوس الملك وبحضوره عام ٤٧ هوجمت .. ثم أصبحت بعد ذلك تميمة أى عيد للمصريين.. فإذا لم تغنها الست فلا عيد هناك، إذن شيرين لم تفعل شيئا خطيرا وفاسدا يجعلها عند مناضلى الفيس بوك واحداً من العناصر الخطرة التى تهدد نجاح الثورة الجديدة.

لقد وجدت شيرين نفسها مضطرة للدفاع عن غنائها لمبارك، حتى إنها وتحت نيران الثورجية ألقت الزبالة على كل ما فات فى العصر اللى فات حتى لا تفقد شعبيتها أو تتعرض ربما لمثل ما تعرض له زميلها تامر حسنى فى ميدان التحرير من ضرب مبرح.. مين يعرف؟!

أقول ما الذى يجمع شيرين وأم كلثوم سوى ذلك الاتهام الآن؟!.. حقيقة الأمر أن هناك أشياء كثيرة مشتركة يجب أن ننظر إليها ونفهمها حتى نتمكن من فهم علاقتها بالنظام السابق وأى نظام قادم.. فربما يغفر لها المصريون مثلما غفروا لأم كلثوم... وربما فى زمن قادم تجد من يكتب عنها مسلسلا وتذاع أغنياتها لمبارك متلما أفرج عن أغنيات أم كلثوم لفاروق!!

شيرين عبدالوهاب يجمعها وأم كلثوم فقر شديد نشأت كلتاهما فى رحابته.. جميعنا ربما يعرف طفولة بنت طماى الزهايرة التى لم تزد حصيلة تعليمها على ثلاث سنوات فى الكُتّاب بضم الكاف وتشديد التاء - لكنهم قد لا يعرفون أيضا أن شيرين ابنة منشية ناصر ذلك الحى الفقير الذى نشأ فى ظل حكومة ثورة ٥٢ لم تتمكن من إكمال تعليمها فى معهد الموسيقى العربية بسبب ظروفها المالية الصعبة. أم كلثوم ربتها سيدة ريفية ظلت بجوارها طيلة أيامها الصعبة حتى بعد انتقالها للمدينة التى سرقت ريفيتها وتحويشة عمرها – ١٥ جنيها – بمجرد هبوطها إليها مثلما هو حال شيرين التى ربتها سيدة فاضلة عانت كثيرا فى مدينة بلا قلب حتى تمكنت من اختراق المستحيل لتصبح فى سنوات قليلة أهم مطربة فى مصر رغم قيمة ووجود أنغام. أصبحت شيرين الأعلى سعرا فى مصر وفى حفلات العرب وشركاتهم بعد أن تخلصت من سطوة منتجها الأول مثلما حدث مع أم كلثوم أيضا التى تحررت من شركتها الأولى بصعوبة بالغة أيضا.. كلتاهما - شيرين وأم كلثوم - حفرت فى الصخر بيديها.. وكلتاهما حصلت على ثقافتها بالتجربة.

يقول د. مصطفى عبدالغنى فى كتابه المهم «الاتجاه القومى فى الأغنية الوطنية العربية»، إن جليل بندارى أطلق على عبدالحليم حافظ لقب لص الثقافة لأنه كان يتحصل على ثقافته بالسمع. وحسب د.مصطفى عبدالغنى أيضا لا تهم الشهادة فى

عملية تعريف المثقف حيث ينقل عن موسوعة فى علم الاجتماع صدرت فى نيويورك عام ١٩٤٩ أن المثقف هو الشخص الذى يحمل معنى تعليميا مجردا.. لا يهم أن يكون من أصحاب الشهادات العالية بقدر استطاعته ذلك التعامل مع قضايا عصره واتخاذ موقف محدد مما يحصل حوله.. وبالمعنى الدقيق «للكلمة يكون حكمه المؤسس على التأمل والمعرفة ناجما بصورة أقل مباشرة واقتصارا على المدركات الحسية».. ويشير د. مصطفى عبدالغنى إلى إن سارتر قال حين جاء الى مصر فى سياق تعريفه للمثقف أن الإنسان مهندسا أو مطربا يتحول إلى مثقف له دور واع فى اللحظة التى يبدى فيها موقفا معينا مما يحدث حوله. ربما بهذا المعنى تصبح أم كلثوم سيدة مثقفة ولهذا غنت فى صغرها عند وفاة سعد زغلول من كلمات أحمد رامى وألحان محمد القصبجى «إن يغب عن مصر سعد فهو بالذكرى مقيم».. وبهذا الفهم أيضا غنت أم كلثوم للملك وأسرته فقد كان فاروق محبوبا عند قطاع من المصريين فى أوقات معينة ولم ينقلب عليه الناس منذ بداية عهده ولكن فى سنواته الأخيرة حين عم الفساد وزكم الأنوف.. وبهذا الفهم أيضا غنت شيرين وهى طفلة عمرها ٩ سنوات للطفل الفلسطينى مشاركة مع طفل آخر اسمه أحمد فتحى فى أحضان الأوبرا، ومن كلمات فوزى إبراهيم وألحان طارق فؤاد «كان نفسنا».. وبهذا الفهم أيضا غنت «ماشربتش من نيلها».. ثم حين عاد مبارك من رحلة علاج فى ألمانيا غنت «يا ريسنا»:

«مش انت كبيرى أنا وغيري
وبينا محبة وعشرة ودم
لما قالوا انك فى شدة
شفت صورة أبويا فيك
نفسى أطير وفى ثانية واحدة
أمد ايدى ألمس إيديك»..

وسأكون جاحدا إن لم أقل إن كثيراً من المصريين فى تلك الفترة كانوا يتابعون حالة الرئيس السابق باعتباره مواطنا مصريا يتعرض لمرض.. وبخوف وعدم وضوح رؤية لما يمكن أن يحدث فى مصر إن تعرض للوفاة مثلا دون وجود نائب للرئيس أو بديل ظاهر كما هو الحال الآن ببساطة ودون فذلكة.

شيرين لم تكن فى يوم من الأيام عضوة فى حزب سياسى أو جزءا من تيار يعرف ما يفعل.. هى مجرد فتاة مصرية بسيطة موهوبة حتى آخر نفس، خرجت من شقوق حوارى منشية ناصر لتناطح مطربات عصرها بمفهوم عصرها، حتى إن الإعلامية هالة سرحان قالت عنها فى إحدى حلقات برنامجها «هالة شو» إنها تقود ثورة البنات ضد ظلم الرجال، وحاولت أن تضفى عليها زعامة ليست لها .. وقلت يومها وكنت مشاركا فى الحلقة إن شيرين عبدالوهاب لا تعنى ذلك على الإطلاق، وهى ليست ممثلا للمرأة فى مصر، ولا تقصد مما تعنيه شيئا أكثر من كونه فنا ممتعا .. وكان قولى هذا سببا فى زعل شيرين لسنوات لكننى ما زلت أصر عليه.. شيرين حينما غنت للمرأة وأعلنت التمرد وصارت تعبيرا حيا عن بنات جيلها لم تكن أكثر من مطربة - لا زعيمة لتحرير المرأة - وحينما غنت لمبارك لم تكن أيضا أكثر من مطربة تتخيل أنها بغنائها مثل هذه الكلمات لرئيس بلدها - المريض - تجامل مواطنين آخرين يشتركون معها فى ذلك التعاطف.

لقد مرت ٥٠ سنة كاملة ويزيد على ثورة يوليو لكن ظلت أم كلثوم وستظل التيار السياسى الوحيد الذى يجمع العرب من المحيط إلى الخليج.. وأظن أن شيرين ستظل لسنوات مطربة جيلها وعصرها وأن غناءها لمبارك سيظل مجرد أغنية فى تاريخ كبير وطويل سيحتفل به أنصار ثورة يناير ومن هم ليسوا معها أيضا.

obeikandl.com

محمد نجيب هو الرئيس الوحيد الذى لم يغن له أحد..
وأم كلثوم جاملته بأغنية «السودان»

الذين غنّوا للرئيس

obeikandl.com

«المجد للشيطان معبود الرياح
من قال لا . . فى وجه من قالوا نعم»!

هكذا أعلن المتمرد أمل دنقل انحيازه الوحيد والصارخ ذات ليلة شتوية.. ونال المجد الذى أراد ولا يزال رغم وفاته منذ سنوات.. لكن هناك من قالوا نعم ونالوا أمجادهم أيضاً.. فالأمجاد نسبية.. مثلما هو الحب والكره.. والشبع والجوع.. والفرح والحزن..إذن ما الفرق بين من غنوا لعبدالناصر والسادات ومن غنوا لمبارك.. هل هناك فرق؟! لماذا عاشت الأغنيات التى مجدت أبوخالد رغم منعها من التداول لسنوات فيما اختفت معظم أغنيات الجيل الذى غنى للسادات ومبارك؟!.. لماذا غنى المصريون لعبدالناصر بعد رحيله.. فيما يتبرأ كل من غنى لمبارك من أغنيته ويكاد يفر بجلده إذا ما جاءت سيره؟

فكرة الغناء للحاكم ليست ابنة هذه الأيام، فهى تكاد تكون طقساً اخترعناه منذ عرف الإنسان الغناء، ولأن هذه المهنة كانت مقصورة على الكهنة فى عهد الفراعنة باعتبارها طقساً دينياً فى البداية فقد ارتبطت بمن يعملون بأجر، ثم تحول الأجر إلى منح وهدايا فى عصور الخلفاء، ولنا فى تاريخ العباسيين أسوة - غير حسنة - وأصبح فى كثير من عصور -المغنى - جزءاً من شكل «النظام»، فلا خليفة بدون قصر، ولا قصر بلا جارية، ولا جوارٍ بدون غناء. وهكذا استمر الحال حتى أسرة محمد على التى اهتم معظم ملوكها بالفن.. والغناء فى مقدمته.. ويكفى أن مصر لم تعرف الأوبرا إلا فى عصر واحد منهم.

صاحبة العصمة بين فاروق ونجيب

كان فى استطاعته أن يظل متربعاً على عرشه إلى آخر يوم فى حياته، وأن يحاط بفيض غامر من الحب والولاء لم يتمتع به أى ملك أو سلطان أو خديو سابق فى مصر.. وكان يمكن أن يجنب مصر كل النوائب والكوارث التى توالت على شخصه، وكان فى استطاعة جلالته أن يتفادى كل ذلك وأن يصنع تاريخاً جديداً ومجيداً.. كان يستطيع ذلك بلا عناء لكن «جلالته خان وطنه وشعبه.. ولأنه لم يهتم بأن يعرف تاريخه وأن ينفذ إلى أسراره وأغواره فقد كان محتوماً أن يلفظه وأن يلقى به إلى سلة مهملات التاريخ».. هكذا كتب الرائع الكبير محمد عودة عن الملك فاروق فى كتابه «كيف سقطت الملكية» وكأنه يكتب عن مبارك. ولأن التاريخ لا يرحم ولأن حوادثه تكاد تتكرر – وأقول هذا ربما للمرة الثالثة – فإن التاريخ لا ينسى قصة صاحبة العصمة أم كلثوم مع الملك ومع من تلاه.. ومن تلاه هو أول رئيس لمصر، وهو أكثر رؤسائها فى تجاهل التاريخ والغناء له.. وهو الرئيس نجيب.

والتاريخ يقول إن جلالته وفى يوم الأحد ٢٤ سبتمبر من عام ١٩٤٤ أنعم على السيدة أم كلثوم بنيشان «الكمال» وهو نيشان يعطى صاحبته لقب «صاحبة العصمة» حيث لم يكن يمنح إلا لزوجات رؤساء الوزارات والأميرات فقط – سبق أن حصلت عليه صفية زغلول أم المصريين وحصلت عليه المطربة أسمهان كذلك ولكن بعد وفاتها بشهرين – لكن أم كلثوم لم تحافظ على ذلك اللقب فقد رفضت أن تتزوج من خال الملك شريف صبرى وأعلنت زواجها من الملحن محمود الشريف فكان أن أعلن الملك

سحب النيشان واللقب منها رغم أنها أكثر من غنى له ولزوجته وبناته، فهناك ثمانى أغنيات مسجلة أولاها «اجمعى يا مصر» من كلمات رامى والحان السنباطى، و«ارفعى يا مصر أعلام السرور» وغنتها فى عيد زواج الملك فى ٢٠ يناير ١٩٣٨.. ثم فى ميلاد الأميرة فريال غنت «يا أغانى السماء» من أشعار محمود حسن إسماعيل، وبمناسبة زفاف الأميرة فوزية غنت «مبروك على سموك» من كلمات الرائع بديع خيرى صاحب أول نشيد وطنى فى تاريخ مصر الحديث «قوم يا مصرى.. مصر دايماً بتناديك».. وهناك أيضاً «يا بدر لما جبينك لاح» و«لاح نور الفجر» التى غنتها فى عيد الجلوس، وهناك أغنيات أخرى نقرأ عن أسمائها ولم تعد لها تسجيلات، لكن كل ذلك لم يشفع لأم كلثوم وسحبوا منها «اللقب والنيشان»، فيما سحب ثوار ١٩٥٢ منها «لقب ونيشان الوطنية» ومنحوها لقب مطربة العهد البائد كما أشرت سابقاً لولا تدخل عبدالناصر.

وفى مساء ٨ يناير من عام ١٩٥٤ غنت أم كلثوم فى حضور معظم أعضاء مجلس قيادة الثورة وبحضور الأمير جابر الصباح ومحمد نجيب الذى أصبح أول رئيس لمصر غنت أم كلثوم «صوت الوطن» وثلاث أغنيات عاطفية، لكن الصاغ صلاح سالم طلب منها أن تغنى أغنية لم تكن قد جهزت نفسها لغنائها وهى أغنية «السودان» مجاملة لمحمد نجيب الذى ولد هناك، وتكاد تكون هذه هى الأغنية الوحيدة التى ارتبطت به فقد مر العام سريعاً ولم يستمر نجيب فى الرئاسة.. فقد حدث أن تولى عبدالناصر وأبعد نجيب الذى تم عزله وتحديد إقامته وفور انتخاب عبدالناصر كان إسماعيل الحبروك جاهزاً ليغنى عبدالحليم حافظ «اخترناك من قلب الشعب»، وتبدأ كلمة الرئيس تعرف طريقها إلى ألسنة معظم مطربى مصر من أول أم كلثوم التى غنت لجمال بالاسم عقب محاولة

الإخوان المسلمين اغتياله فى حادث المنشية من كلمات بيرم التونسى «يا جمال يا مثال الوطنية»، وظلت تغنى له فى جميع مراحل زعامته.

فى ١٩٥٨ غنت له «بطل السلام» بعد عودته من رحلة إلى روسيا.. وفى ١٩٦٧ وعقب النكسة وعقب إعلانه قرار التنحى مباشرة جاءت بصالح جودت والسنباطى ليصنعا واحدة من أجمل أغنياتها رغم عدم إذاعتها إلا ليوم واحد حيث عاد وقبل عبدالناصر رأى الشعب بعدم التنحى ولم يعد للأغنية معنى.

«قم واسمعها من أعماقى فأنا الشعب
ابق فأنت السد الواقى لمنى الشعب
ابق فأنت الأمل الباقى لغدٍ صعب
أنت الخير وأنت النور
أنت الصبر على المقدور
أنت الناصر والمنصور
ابق فأنت حبيب الشعب»..

نعم هكذا صار عبدالناصر رغم الهزيمة - التى أصبحت نكسة - هو الناصر والمنصور على لسان أم كلثوم التى رثته بعد وفاته من شعار نزار قبانى:

«عندى خطاب عاجل إليك
من أرض مصر الطيبة
من الملايين التى شيبها هواك
من الملايين التى تريد أن تراك»

هذه الملايين وحدها هى التى أصرت على بقاء أغنيات جيل كامل لعبدالناصر رغم وفاته، ورغم الحملة الشرسة التى أطلقتها حاشية السادات بعد ذلك بعام واحد لتنهش كل شىء يخصه حتى ذمته المالية التى لم تسلم من حملة رجال أخبار اليوم، وإن أثبت جرد خزينته بعد ذلك وأثبتت السنين وقال التاريخ إنه واحد من أنبل وأنزه زعمائنا.. وربما لهذا السبب ظلت هذه الأغنيات رغم منعها لسنوات حتى أفرج عن بعضها عام ١٩٨٢ فى مجموعة سماها الراحل مجدى العمروسى «وطنيات حليم».. هذه المجموعة لم تصدر بالأسواق إلا بعد موافقة مبارك شخصياً - راجع كتاب «أعز الناس» للعمروسى - وهذه الأغنيات إذا كانت قد خلدت اسم ناصر فقد خلدت اسم عبدالحليم أيضاً.

الرئيس الأب بين جمال ومبارك

«وقف عبدالحليم حافظ طوال حياته على شاطئ بحر السياسة.. لكنه لم يتورط ولم يغرق نفسه فيها.. أغانيه السياسية كانت تعبيراً عاطفياً عن وطنيته وكانت أيضاً رغم إخلاصه لما يقوله مشروعاً ناجحاً صنع به مجده».. هذا ما يقوله نصاً واحد من أهم صناع تجربة عبدالحليم وصاحب أغنيته الشهيرة للسادات «عاش اللى قال» الشاعر والصحفى الراحل محمد حمزة فى كتابه «الملف السرى فى حياة عبدالحليم حافظ»، وفيه أيضاً يكشف حمزة كيف تطورت علاقة الزعيم عبدالناصر بحليم إلى علاقة أبوية.. يحكى حمزة: «فى إحدى الحفلات القومية توجه حليم إلى الرئيس جمال عبدالناصر لمصافحته وأثناء المصافحة قال عبدالحليم: ألف سلامة على سيادتك فقد علمت أنك

كنت متوعكاً الأسبوع الماضى واتصلت بالرئاسة للاطمئنان على سادتك.. ورد عبدالناصر: أشكرك لقد أخبرونى بذلك. ثم استطرد: وليه تكلم الرئاسة خد نمرتى الخاصة.. علشان تتصل بى مباشرة عندما تريد أى شىء».. وكانت هذه أول مرة كما يقول حمزة يعطى فيها عبدالناصر نمرته الخاصة لفنان.. وعرف حليم - حسب حمزة أيضاً - كيف يذهب إلى قلب ناصر.. متى يتصل.. ومتى يمتنع.. ومتى يكمل الحوار بعد الاتصال ومتى يتوقف. وفى إحدى هذه المكالمات بدأ الحوار هكذا «وكانت المناسبة عيد الفطر» حليم: «كل سنة وانت طيب يا بابا». ورد عبدالناصر «وانت طيب يا حبيبى».. ليس مهماً ما حدث بعد ذلك.. فقد نشأت علاقة خاصة بين الزعيمين.. زعيم مصر والعرب.. وزعيم الأغنية الجديدة وقتها.. فكان منطقياً أن يحتل الأب «عقل حليم» وأن تحتل أفكاره حنجرته.. وأن يغنى له الأخير بكل ما يملك من «نفس».. وحتى «آخر نفس».. غنى حليم لأفكار عبدالناصر.. وله:

«على راس بستان الاشتراكية
واقفين بنهندس ع المية
أمة أبطال.. عُلما وعمال
ومعانا جمال..
بنغنى غنوة فرايحية»..

وغنى له من ألحان أستاذه عبدالوهاب:

«يا جمال يا حبيب الملايين
ماشيين فى طريقك ماشيين
للنور طالعين.. للخير رايحين
ويّاك يا حبيب الملايين»..

ولعبدالوهاب نفسه قصص فى مسألة الغناء للرئيس.. فهو الوحيد الذى غنى للرئيس فى كل العصور التى عاشها.. غنى للملك حتى صار يكتب اسمه على اسطواناته بجوار لقب «مطرب الملوك».. وغنى لعبدالناصر «ناصر يا حرية.. ناصر يا وطنية».. وغنى للسادات الذى أوشحه وشاحاً عسكرياً وقلده رتبة اللواء وهو يعيد توزيع نشيد «بلادى بلادى» ليحول نغماته السريعة الحادة إلى لحن بطىء يتناسب مع إيقاع «السلام» الذى قرره السادات مع إسرائيل فى كامب ديفيد. عبدالوهاب لم يسقط من فوق القمة أبداً كما يقول أستاذنا الراحل محمود عوض الذى الذى استعان بمقولة هوراس «لعن الله كل موسيقار يلعب دائماً على نفس الوتر».. لكن عبدالوهاب وحسب محمود عوض أيضاً فى كتابه الشيق «محمد عبدالوهاب الذى لا يعرفه أحد» لم يلعب كثيراً على نفس الوتر لكنه لعب على كل الأوتار وغنى لكل الزعماء فى كل العصور.. والجملة الأخيرة من عندى. لقد قال عبدالوهاب فى إحدى المرات لمعلمه وأستاذه أحمد شوقى: «يا باشا أنا هاعمل للأغنية اللحن اللى يعجبك» لكن شوقى تجهم وأضاف «يعنى إيه اللحن اللى يعجبنى؟».. غضب شوقى لأن عبدالوهاب أراد إرضاءه بأن يصنع له لحناً على ذوقه، لكن الرؤساء لم يغضبهم ما فعله عبدالوهاب لهم فقد لحن لهم وغنى على ذوقهم طيلة عمره، ولأنه شاطر ومبهر وفنان فعلاً غنينا معه وأحببناه، سواء ما غناه لأستاذه، أو لمليكه.. أو ما لحنه لحليم الذى غنى لأبيه مثلما غنت شيرين لأبيها مبارك.

«لما قالوا إنك فى شدة
شفت صورة أبويا فيك»..

ومن المؤكد أن بينهما - الأب جمال والأب مبارك - فروقاً كثيرة.. فالذين غنوا لجمال تضم قائمتهم أم كلثوم وعبدالوهاب وهدى سلطان وحليم وشادية وفايزة وصباح وفريد الأطرش وسبحة طويلة لا تشبع من عد حباتها حتى تصل للمطرب الشعبى الشهير حفنى أحمد حسن.. فيما غنى لمبارك عمرو دياب وشيرين وعمار الشريعى ولطيفة وشعبان عبد الرحيم.. هل هناك فرق؟!

obeikandl.com

obeikandl.com

مطرب الرئيس.. من العندليب
إلى شعبان عبدالرحيم!

obeikandl.com

«انظر وراءك في غضب»، رائعة المسرحي الشهير «جون وازيورن» تحولت إلي شعار دائم لدي غالبية المصريين.. ربما يعود ذلك إلي عصور الفراعنة أيضاً حيث كان كل فرعون يأتي يمحو انجازات سابقيه المسجلة علي جدران المعابد.. وربما يشير الإعلان التليفزيوني الشهير والذي أشيع أن كاتبه هو عمنا وناج راسنا «صلاح جاهين».. ذلك الذي يقول: «انسف حمامك القديم»، إلي طقس مصري حميم نمارسه كلما نظرنا إلي الوراء.. نحن لا نغضب فقط من ماضينا، لكننا نحاول عادة أن ننسفه بكل ما فيه رغم أننا ـ وهذا أمر محير فعلاً ـ كثيراً ما نحن إلي ذلك الماضي ونتمني في بعض الحالات عودته.. ولكم في مقولة «زمن الفن الجميل» أسوة غير حسنة، ففنون الماضي لم تكن كلها جميلة.. كما هي فنون هذه الأيام ليست كلها بالتأكيد سيئة أو رديئة.

المهم نظر ثوار ميدان التحرير إلي الوراء في غضب.. وأهالوا التراب علي كل ما فيه.. حاولوا وهم في فورة حماسهم نسف كل ما هو قديم وليس الحمامات فقط.. ومن هذا القديم بلا شك ما وجدوا أنفسهم يستدعونه ويمجدونه ويعتبرونه صوتهم المعبر عنهم كما هو الحال في بعض أغنيات عبدالحليم لثوار يوليو مثل «صورة.. كلنا عايزين صورة..»، والتي تم اقتطاع أحد أجزائها ليصبح تهديداً لمن تخلف عن الحضور إلي التحرير:

«واللي هيهرب م الميدان.. عمره ما هيبان في الصورة»..

حيث تحول الميدان من ساحة القتال ضد إسرائيل والصهاينة أو من ميدان العمل والإنتاج كما هو في أغنية حليم والطويل وحاهين إلي ميدان عبدالمنعم رياض أو التحرير اللذين جرت فيهما معارك من نوع مختلف.. مثلما استدعوا أيضاً أغنيات الشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم وعبدالرحيم منصور ومحمد منير. إذن لم يكن الماضي باعتراف حناجر ثوار ميدان التحرير كله سيئاً.. وبهذا الفهم أنظر إلي الأغنيات التي خرجت من حناجر مبدعيها لمغازلة زعيم راحل مثل عبدالناصر ـ أميل إلي تجربته وأعتنق مباديء ثورته ـ إلي أغنيات كتبت للسادات الذي لا أحب أيامه علي الإطلاق وإن كنت أحترم قراره الشجاع بالحرب في أكتوبر.. بنفس الفهم أنظر إلي أغنيات شعبان عبدالرحيم وعمرو دياب وعمرو مصطفي للرئيس مبارك.. لا أتهم أحداً.. ولا أدعو إلي نسف ما غني.. بل علي العكس أدعو إلي تسجيله وتوثيقه في سياقه التاريخي.. مع تحليل مضامينه وفنياته من حيث الجودة والرداءة.. فكما يقول الناقد الشهير محمد سعيد في كتابه أشهر مائة في الغناء العربي» إن «غياب التوثيق هو الداء الذي تضعف به ذاكرة أي أمة».

ليس شرطاً أن يغني مطرب أو مطربة لرئيس ما تحت ضغط.. كما أنه ليس شرطاً أن تكون كل الأغنيات المصنوعة لرئيس ما نفاقاً أو مشاركة في زفة أو طلباً لمجد شخصي.. فكما يقول أستاذنا أحمد بهاء الدين «هناك لحظة سياسية ما تعلن بشكل تلقائي عن مولد أغنية».. وفي هذا السياق هناك أربع أغنيات سجلتها التواريخ لجمال عبدالناصر بعيداً عن عبدالوهاب وحليم وأم كلثوم.. أولاها أغنية لصباح التي لا يمكن أن نقول عنها إنها مطربة عبدالناصر.. فلم يعرف عنها أي علاقة خاصة بقصر الرئاسة في عهد

يوليو، اللهم إلا تلك العلاقة غير المباشرة التي جعلت مئات المطربين يغنون لذلك العهد في سياق همّ قومي ورغبة عارمة في تغليب ما سمي وقتها بـ«القومية العربية».. أغنية صباح التي أشير إليها تكاد تكون أغنية غير معروفة حيث إنها سجلت في نهايات فترة الوحدة بين مصر وسوريا.. هذه هي اللحظة التاريخية التي يتحدث عنها كاتبنا الكبير أحمد بهاء الدين.. ولما ألغيت الوحدة لم تذع الأغنية بعد ذلك هذه الأغنية كتبها شاعر شديد الموهبة والتميز هو مرسي جميل عزيز، ولحنها المختلف دائماً محمد الموجي واسمها «أنا شفت جمال»، ولمن لم يسمعها فقد استخدم الموجي كل ذخيرته من الروح الشعبية ليزرعها في حنجرة صباح التي تسمح باستيعاب هذه الروح والتي وفرتها بسهولة وبساطة كلمات عم مرسي جميل عزيز.

«أنا شفت جمال والنبي يا امّه ..
والدنيا احلوت قوي لمّا
أنا شفت جمال..
وأنا واقفة في البلكونة البحرية
ويا الأفراح مستنية
الموكب هل علي شارعنا
مع أجمل نسمة عصرية
وف قلبي الموكب واللمة..
أنا شفت جمال!!».. إلخ

هكذا أصبحت رؤية جمال.. مجرد رؤيته شيئاً ظريفاً وحلماً يناوش الكثيرات من بنات ذلك الجيل في الريف والمدينة.. وما غنته صباح لم يكن شيئاً مفتعلاً.. فشهود تلك الفترة يحكون كيف أن الجماهير في معظم البلاد العربية وفي مصر أيضاً كانت تشيل «عربية ناصر» فوق رؤوسها.. هذه المشاهد ألفناها في المقاطع القديمة المتوافرة علي «يوتيوب» ومازالت محفوظة في جريدة مصر الناطقة.. لكن التليفزيون المصري ظل ومنذ بداية عهد السادات لا يذيعها.. ربما خوفاً أن يخرج لهم الرجل من القبر.. أو ربما يخرج لهم من يشبهه.. هذا الرجل هو نفسه الذي غني أدهم الأغنية المصرية محمد رشدي له بلقبه المحبب عند عامة المصريين والعرب «أبوخالد».. أغنية رشدي كانت قبيل نكسة ١٩٦٧ مباشرة.. والغريب أنها كانت تبشر عبدالناصر بأننا سندخل «تل أبيب» وتبشره بالنصر. وتؤكد مثل أغنيات أخري علي أنه «الزعيم.. حاضرنا.. ومستقبلنا»:

«باسم الله في طريقك سير
فيه قدامك نصر كبير
يا اللي حاربت الظلم يا ناصر
إحنا معاك والمولي نصير..
أبوخالد يا حبيب..
بكرة حندخل تل أبيب
إحنا جنودك وانت بطلنا
وانت حياتنا ومستقبلنا
انت القوة اللي بتدفعنا
واللي اتحقق بيها أملنا
يا أبوخالد»..

ولم يذهب معظم المطربين الشعبيين في تلك الفترة كثيراً.. فالغناء للزعيم لم يفرق بين مطرب رسمي.. وآخر شعبي.. فعلي حد قول عمنا الكاتب الكبير أحمد بهاء الدين لمفيد فوزي (راجع كتاب «صديقي الموعود بالعذاب»).

لا أعتقد أن عبدالحليم قصد أن يغني سياسة.. ولو كان هذا مقصوداً ما كانش نجح لا للنظام ولا للمطرب ولا للناس.. وإنما كان هناك تعبير يشاركه الإحساس به غالبية الناس.. هذا الإحساس هو وحده الذي دفع بمطرب شعبي نادر الصوت والمذاق هو حفني أحمد حسن ـ لمن لا يعرفه هو صاحب أغنية مظلوم التي غناها محمد محيي مؤخراً ـ أن يستغل حفلاً جماهيرياً أقامه نادي الاتحاد السكندري ليغني وسط عشرات الآلاف لجمال عبدالناصر أيضاً:

«صبرت ع الحلوة والمرة
ما تنازلتش أبداً ولا مرة
تعيش يا فارس «بني مرة»
يا جمال.. يا بطل العروبة.. يا جمال..
أنا أودّك تحكم طول «العامر»
وجيشك قلبه بالإيمان عامر
ومعاك عبدالحكيم عامر
يا جمال.. يا بطل العروبة .. يا جمال».

إلي هذا الحد.. كان الشعبيون يقبلون عبدالناصر.. وكامل نظامه بما فيه عبدالحكيم عامر.. ورغم أن الأستاذ أحمد بهاء الدين الذي ألجا إليه كثيراً في هذه الصفحات يقول «غير معقول أن يغني مطرب للتنظيمات السياسية وينجح» فـ«عدة الأغاني السياسية المباشرة أغان فاشلة» فإن هذا الأمر إذا اتفق عليه «غالبية الناس» ينجح .. وهذا حدث مع شادية.. التي غنت لمصر.. ولعبد الناصر.. معاً وبعد وفاته.. في سابقة تكاد تكون هي الأول من نوعها.. فقد سجلت شادية الأغنية علي حسابها لتودع عبد الناصر هذه الأغنية يكشف سرها مؤلفها الكاتب الصحفي الشاعر الراحل محمد حمزة واسمها «الشمعة دابت».. يسرد حمزة في كتابه «شادية من الطفولة إلي الحجاب» أنها كانت تحزم حقائبها استعداداً لسفرها إلي أمريكا لقضاء عدة أسابيع عند أختها عفاف شاكر وكانت هذه هي عادتها كل عام. وفجأة سمعت نبأ وفاة عبدالناصر يذاع بالراديو، فانخرطت في البكاء وظلت ليومين كاملين لا تقرب إلي طعام، وبأمر طبيبها الخاص تناولته في اليوم الثالث للرحيل حيث تدهورت صحتها بشكل كبير.. وفيما كان حمزة يزورها للاطمئنان علي صحتها أسمعها ما كتب عقب رحيل ناصر «أغنية انفعالية مباشرة بعد يومين من الرحيل».. فكان أن قالت لزوجها الفنان صلاح ذو الفقار ولبليغ حمدي.. «عايزة أغني الكلام ده».. ولحن بليغ.. لكنهم وجدوا صعوبة في التسجيل بالإذاعة .. فقررت تسجيلها علي حسابها في أحد الاستوديوهات الخاصة.. وقدمت الشريط هدية للإذاعة.. لكن الأغنية لم تذع كثيراً بعد ذلك فقد بدأت الحرب.. حرب ما سمي بثورة التصحيح.. لكن بعد كل هذه السنوات وجدت من يبحث عنها ويسمعها ويحكي قصتها ويردد مقاطعها:

«ماتقولوش الشمعة دابت
ماتقولوش دا غاب الضي
مهما يغيب اللي بني
مهما يغيب في قلوبنا حي
زي مصر وزرعها.. عايش
زي طلعة فجرها.. عايش
زي ضحكة طفلها.. زي الأمل في قلوبنا
لكل بكرة .. جاي».

لماذا اختفت أغاني السادات

جاء السادات لعرش مصر في ظروف مفاجئة.. لم يستقبله الكثيرون بمودة.. ومر عام من حكمه في صراع مع من أسماهم بمراكز القوي.. ولأن العام كان ريبة كان من الطبيعي أن يظل عبدالناصر موجوداً حتي في الغنـاء.. وقد أشـرنا سـابقاً لأغنيتين لأم كلثوم وشادية خرجتا لبكاء ناصر بعد رحيله.. هذا بعيداً عن الغناء الجماعي في جنازته وأغنيات أخري غير رسمية أحتفي بها اليسار المصري.. ولم ينته السادات من خصومه ويستقر علي عرشه حتي بدأت مطالبات الشباب بالحرب.. وعاشت مصر مرحلة ما سمي اللا سلم واللاحرب.. وهجر الكثيرون من مطربي مصر الساحة إلي ملاهي لندن وبيروت.. وعزف حليم وبعض رفاقه تجربته في أغنيات عاطفية طويلة من

شاكلة مداح القمر.. وبدأت موجة أغاني الفرق.. وظهرت الأغنية السياسية المناوئة وأشهرها ما قدمه محمد نوح وفرقة النهار.. والشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم ثم كان إن حقق الرجل ضربته الكبري بحرب أكتوبر فكان من المنطقي والطبيعي أن تفرح مصر وتغني.. وبالمرة تغني للرئيس الذي أتخذ قرار الحرب.. وكانت أغنية حليم «عاش اللي قال».. هي الأشهر.. وقيل إن كثيرا من شعراء تلك الفترة رفضوا أن يكتبوا لبليغ أغنية للسادات - كانت بين بليغ والسادات علاقة جيدة ليس هذا وقت سردها.. وكتب محمد حمزة:

«عاش اللي قال للرجال عدوا القنال
عاش اللي حول صبرنا حرب ونضال
عاش اللي قال يا مصرنا مافيش محال
عاش ليكي ابنك.. عاش اللي حبّك
رد اعتبارك .. خلي نهارك .. أحلي نهار».

ورغم أن الأغنية لا تذكر اسم السادات نصاً.. ويمكن ردها واحالة معانيها إلي أي قائد في الحرب الأهم في تاريخ مصر.. فإن الغناء للسادات باسمه جري بعد ذلك وفي عز خصامه التاريخي مع القوي السياسية في مصر.. فغنت له فايدة كامل «حبيبنا يا سادات» وغني سيد مكاوي «تعيش يا سادات» عقب عودته من رحلة «الكنيست».. وخرجت بعدها أغنيات تذكر السادات بالاسم ولكن لتندد به وعلي رأسها «العالم التاني» للأبنودي وفاروق الشرنوبي:

«واللي أعتدي جاي بابتسامته يعتدي
بدل البنادق.. بالبنوك والبورصة
بدل المدافع بالرايات وقابلني
وقال لسمسار الوطن.. ليك حصة
وده يقول كتير.. وده يقول اتوصي».

هكذا وصف الأبنودي السادات بأنه «سمسار الوطن».. وهكذا اختفت من الساحة الأغنيات التي تمجد رجل أكتوبر وان عاشت الأغنيات التي مجدت الحرب ذاتها.. ومن أشهرها علي الإطلاق: «صباح الخير يا سينا.. حلوة بلادي السمرا.. بسم الله.. وسمينا وعدينا» وغيرها وظل هذا الوضع ربما لسنوات في بداية حكم مبارك.. أختفي اسم الرئيس من الأغنية وأصبحت هناك مصر.. «طالعين علي أرض الفيروز».. «المصريين أهمه».. «مبروك ياناسنا وأهالينا» لياسمين الخيام.. و«عاشت بلادنا» لمحمد ثروت.. ظل الأمر كذلك حتي أعيد انتخاب مبارك لفترة رئاسية ثانية فعاد اسم الرئيس للأغنية من جديد.. وخرج المنافقون من جحورهم بمعان هشة لم تعش طويلاً.. أنظر لشعبان عبدالرحيم وهو يغني

«طور الإعلام.. وبقينا في الريادة
اتنين قمر صناعي.. ولسه فيه زيادة
وكمان مدن جديدة.. ومترو مش معقول
الريف فيه نور ومية.. ومشيوا بالمحمول»..

وصلنا إلي «الريادة» ذلك المصطلح الشهير الذي ابتدعه صفوت الشريف . والمحمول .. ومترو الانفاق .. والأخير له حكاية مع عمرو دياب هي سر عدم غنائه للوطن لسنوات طويلة كسرها مؤخراً

obeikandl.com

لماذا رفض «الهضبة» الغناء للمترو..
وحوّل مبارك إلى الهرم..والنيل..ومصر واللى فيها؟!

فصل الختام فى قصة مطربى النظام

obeikandl.com

obeikandl.com

من المؤكد أن التاريخ لا يكرر نفسه.. لكن من المؤكد أيضا أننا نستعذب تكراره.. وإلا بالله عليكم لماذا تكررت كل تلك الثورات من أول «ثورة الإقطاع فى نهاية الأسرة السادسة» وحتى ثورة يوليو ٥٢؟!.. ولماذا تكرر ظلم الحكام من «بيبى الثاني.. وحتى حسنى مبارك»؟!

لأستاذنا محمد العزب موسى كتاب رائع يرصد بالدراسة والتنقيب وقائع «أول ثورة على الإقطاع» فى مصر وذلك عبر وثيقة عرفت باسم «وثيقة الحكيم ايبور».. إذا نظرت إلى بعض سطورها.. ستصرخ لا شك بأن ذلك ما يحدث الآن بالضبط..

تقول وثيقة ايبور: «لقد سلبت وثائق قاعة العدل.. وأصبح المكان السرى مكشوفا.. وطرحت سجلات المحاكم أرضا».. «لقد هوجمت الإدارات العامة ونهبت قوائمها وأذيعت أسرار التعاويذ السحرية».. ألا يشبه ذلك وقائع اقتحام مقرات الشرطة.. والمحاكم.. ونبش وثائق أمن الدولة فى يناير الماضى؟!

و«خد عندك كمان».. يقول ايبور: «لقد امتلأت البلاد بالعصابات حتى ليذهب الرجل إلى الحرث حاملا درعه».. «لقد أصبح حامل القوس مستعدا.. والمجرمون فى كل مكان».. ألا تشبه هذه الوقائع ما جرى من انفلات أمنى وما تلاه؟! لن أحكى لكم بقية ما جرى من وقائع الثورة على نظام «بيبى الثاني» فالكتاب الصادر عن «الهلال» فى مايو ١٩٦٦ يرصد ذلك بالتفصيل.. كما أن خاتمة القصة مريبة ومرعبة.. وهذا ما لا

نتمناه الآن.. يكفى أن تعرف أن سبعين ملكا حكموا مصر فى ٧٠ يوما.. هكذا يقول المؤرخون.. لكن ما لم يقله هؤلاء ولا غيرهم: لماذا يتكرر الظلم.. ولماذا يتكرر تأليه الفرعون.. إذا كنا نقرأ التاريخ جيدا؟!.

يقول عمنا سيد حجاب فى مقدمته الرائعة لمسلسل «حدائق الشيطان» من ألحان عمار الشريعي:

«قالوا لفرعون يا ظالم
مين فرعنك.. قال عبيدي
حين نخوا تحت المظالم
وانساقوا للمرعى بيدي»..

هذه هى خاتمة القصة إذن.. نحن من نصنع الفرعون.. نحن صناع أغنيته الخاصة.. نحن من بنى نظامه بغنائنا له.. أو العكس.. وعلاقة عبدالله كمال رئيس تحرير روز اليوسف السابق بالنظام السابق معروفة، لكن ما هى علاقة عبدالله كمال بمحمد ثروت.. بأغانى النظام؟!

فى بداية ثمانينيات القرن الماضى أصدر عبدالله كمال بمشاركة إبراهيم عيسى كتابا جميلا عن الأغنية المصرية وقتها.. رصدا من خلاله البدايات الأولى لما اصطلح على تسميته من بعدها بتيار «الأغنية البديلة».. وكما كان عبدالله كمال هو صاحب تسمية ذلك التيار.. كان هو أيضا صاحب لقب مطرب النظام الذى منحه للمطرب محمد ثروت..

والأخير لم يعترض على اللقب وقتها.. ربما اعتبره ميزة تجعله مطلوبا فى الاحتفالات الرسمية.. ورغم منح ثروت هذا اللقب فهو لم يغن لمبارك بشكل مباشر.. ليس لأنه كان يرفض ذلك لا سمح الله، لكن ببساطة لأن الغناء لمبارك باسمه لم يبدأ وقتها.

كانت أغنية المناسبات منذ نهاية عصر السادات تسير فى قارب «مصرنة» الغناء والتوجه فى مقابل عروبية مرحلة عبدالناصر.. كانت القطيعة قد حدثت بين نظام السادات وحكومات عربية عقب «كامب ديفيد» فكان أن أصبح الغناء «لمصر المصرية».. لا العربية.. وتكفل عبدالوهاب بذلك، وخرجت أغنيات «مصريتنا قوميتنا وطنيتنا.. حماها الله» و«المصريين أهمّه» وغيرهما.. واستمر الأمر فى بدايات مبارك رغم أنه حاول إعادة العلاقات المصرية العربية ونجح فى ذلك إلى حد كبير.. لكن بوصلة الأغنية الوطنية الرسمية ظلت فى سياق الأمر نفسه.. وهكذا أفلت محمد ثروت من الغناء المباشر لمبارك.. ولهذا فهو يقول الآن وبفم مليان «أنا لم أغن لمبارك.. بل غنيت للبلد.. ثم إننى منذ ١٥ سنة لم أشارك فى حفلات أكتوبر ومنعونى من ليالى التليفزيون».. بقى أن يقول إنه كان يحارب النظام!!

لقد بدأ محمد ثروت نشاطه الفنى عام ١٩٨١.. وقلت سابقا ومازلت أقول إنه من أجمل و«أضبط» الأصوات التى جاءت إلى عالم الأغنية المصرية.. بدأ ثروت علاقته بالأغنية الرسمية بأوبريت كان من المفترض أن يذاع فى احتفالات أكتوبر ١٩٨١.. لكن اغتيال السادات حرمه من ذلك حيث ألغى الاحتفال ليعود ثروت ويشارك فى العام التالى فى أول ظهور احتفالاتى لمبارك فى أوبريت «الله ع الشعب» مع إيمان الطوخى وهانى شاكر.. ثم غنى مع الأخير بعدها بعام «بلدي».. ثم وفى عام ١٩٨٤ غنى من ألحان عبدالوهاب وفى السياق الذى أشرنا إليه سابقا:

«شوف جدودك.. من لحظة وجودك
شعلة عزم وخير وسلام
صوت شعب مصرى وأعظم ما فيه
أى أخ عربى يعوزه يلاقيه
أمجاده كتبها بحياته
مصر حياتها خطى المخلصين»..

ورغم تفاهة وعبط وعمومية ذلك الذى تضمنه أوبريت «رجالة وطول عمر ولادك يا بلدنا رجالة».. وكأن هناك من كان يشكك فى رجولة أبناء مصر.. رغم ذلك وجد النظام أن هذه الأغنيات لا تلقى قبولا لدى الناس.. ووجد تعبيرا رائعا عن ذلك الرأى فى أغنية تضمنها فيلم «سمع هس» من ألحان مودى الإمام.. غناها حسن كامى ربما تذكرونها:

«أنا وطنى بانشد وباطنطن
واتباهى بمجدك.. يا وطنطن»

هذه الطنطنة لم تعجب لا الشعب ولا النظام.. فكان أن قرروا تغيير العتبة.. والعتبة فى ذلك الوقت كانت ممثلة فى صوت المطرب محمد ثروت.. حيث تم استبداله بعمرو دياب ومحمد فؤاد.. وعمرو مصطفى وتامر حسنى فى وقت لاحق.. وهو الأمر الذى لم يفهمه عمار الشريعى صاحب أكثر الأغنيات مدحا فى شخص مبارك «اخترناك» حينما قرروا الاستغناء عن خدماته والإتيان بحميد الشاعرى ومحمد رحيم وعمرو مصطفي.. ولهذا صب عمار جام غضبه على أنس الفقى الذى حرمه من احتفالات

أكتوبر التى شارك فى زفتها لسنوات طويلة!! الأمر لم يكن مقصودا به إزاحة عمار أو ثروت أو سمير الاسكندراني، إنما كان الأمر هو البحث عن صيغة موسيقية تشبه الجيل الجديد ونجومه.. وكان أن قدم مدحت العدل بعض الأغنيات الوطنية المهمة فى فيلم «أمريكا شيكا بيكا».. وفى فيلم «مافيا»:

«بص لحبيبتك حبها
زى ما هي.. حبها
لا حناخد إيه ولا كام وليه
ده العشق لو م القلب طالع
افتح خزاين ذكرياتك شوف الصور
والمس ضفاير بنت حلوة زى القمر»

لقد تحول الوطن إلى تفاصيل صغيرة.. هكذا كتب مدحت العدل بإرادته فى فيلم سينمائي.. فكان أن وقع الاختيار عليه مع زميله أيمن بهجت قمر ليكونا شعراء المرحلة الجديدة من فكر النظام مع عمرو مصطفى وحميد الشاعري.. فكانت أغنيات «سينا.. انت أكيد فى مصر.. ما شربتش من نيلها.. ولو كنا بنحبها» وفى المقدمة من نجومها تامر حسنى الذى حل فى السنوات الأخيرة بديلا لعمرو دياب لدى قطاع كبير من الشباب.. ولهذا استهدفه النظام!!

الأمن المركزي.. وعمرو دياب

فى ٢١ يوليو عام ١٩٩٧.. بالتحديد فى مساء ذلك اليوم.. كانت كاميرات ماسبيرو جميعها قد توجهت إلى مكان ما فى مصر لتنقل على الهواء مباشرة حدثا اعتبره البعض تاريخيا.. فيما مر الأمر على كثيرين.. واعتبروه مجرد حفل يتكرر كل عام.

كان اليوم احتفال الكلية الحربية بتخريج إحدى دفعاتها.. وكان نجم الحفل هو عمرو دياب.. المطرب الأشهر فى ذلك العام.. أما المشهد فهو الأغرب.. فريق من الراقصات والراقصين على خشبة المسرح.. وليزر.. ودخان.. وعمرو دياب يغنى «راجعين.. نعشق وندوب ونعيش مع بعض حياتنا».

لقد اعتبر زميلى طاهر البهى فى مقدمة كتابه «المغني» عن عمرو دياب أن ذلك الأمر تغير نوعى فى علاقة المغنى بالرئيس.. وتساءل: هل كان حليم يجرؤ أن يفعلها مع عبدالناصر؟!.. بالطبع لا.. وأعاد البهى ذلك الأمر إلى تغير الزمن.. والعصر.. وأن طبيعة العصر سمحت بأن تعلو راقصات على أنغام ألحان شبه مسروقة من الغرب وفيديو كليب مباشر على الهواء.. سمحت الظروف بأن يحدث ذلك كله فى حضور الرئيس.. لقد تغير النظام وتغيرت أفكاره.. لقد كانوا يستهدفون جيلا جديدا.. رمزه هو عمرو دياب.. وهذه أغنيته.. وهذه طريقته فى الاحتفال بدفعة جديدة من رجال الكلية الحربية.. حدث ذلك نعم.. لكن لماذا لم يصبح عمرو دياب مطربا يعبر عن أفكار النظام مثلما كان عبدالحليم حافظ؟!

عمرو عبدالباسط دياب.. هو الابن الأول لأم بورسعيدية وأب شرقاوى كان يعمل فى هيئة قناة السويس.. وكلنا يعرف علاقة مدن القناة بالأغنية الوطنية.. وربما لهذا السبب كان الطفل عمرو لا ينام إلا على صوت حليم وهو يغنى «ناصر كلنا بنحبك».. وربما لهذا السبب وحده كانت أغنية عمرو الأولى هى «بلادي.. بلادي» فى احتفال محافظة بورسعيد فى ١٨ يونيو ١٩٦٨ بذكرى رحيل آخر جندى بريطاني.. ويومها كرم المحافظ

ذلك الطفل بقلم حبر أبنوس.. والغريب أن يتم افتتاح الإذاعة الداخلية لمحافظة بورسعيد بالنشيد الوطنى «بلادي.. بلادي» - لم يكن نشيدا وطنيا وقتها - بصوت الطفل عمرو عبدالباسط دياب وبعده نشرة الأخبار.. ومثل أهل بورسعيد الذين تم تهجيرهم.. عرف عمرو معنى التهجير.. ومن بورسعيد خرج عمرو دياب إلى النجومية بفرصة كان ينتظرها على أحر من الجمر، فقد نجح فى الثانوية بـ٥٠٪ فقط.. واختير ليغنى فى احتفالات افتتاح قناة السويس، فغنى الأغنية الشهيرة لمحسن الخياط والموجى وحليم «النجمة مالت ع القمر»!! كل هذه العلاقات الحميمة بالوطن.. وبالأغنية الوطنية.. لم تجعله على الإطلاق واحدا من نجومها.. لكنه كان يؤديها لأن الناس فى بلدته كانوا يطلبونها.. عمرو كان يغنى ما يريده الزبون.. والزبون الذى يذهب إليه فى شارع الهرم كان يطلب أنواعا أخرى من الغناء.. ولأنه وقع فى شر أعماله ووقع عقد احتكار مع صاحب ملهى لم يستطع أن يستفد من زبائن كل الملاهى التى كانت تطلبه.. حتى ثار جنود الأمن المركزى فى الأحداث التى عرفت بانتفاضة الأمن المركزى عام ١٩٨٦.. وحرقوا من بين ما حرقوا الملهى الذى كان يغنى فيه عمرو.. ومعه حرقوا العقد الذى كان يكبله.. ومن بعدها تعلم ألا يحتكره أحد.. حتى السلطة ذاتها.. يقترب منها بقدر.. ويبتعد عن أى غناء فيه «ذرة سياسة» ربما تبغضها عليه..

أذكر أنه فى ندوة بمجلة «الإذاعة» فى بداية التسعينيات انفعل عمرو جدا حينما سأله بعض زملائنا لماذا لا يغنى للوطن مثل حليم.. فقال.. «هاغنى لإيه.. عبدالحليم كان عنده سد عالى يغنيله.. أغنى لمترو الأنفاق؟!» لم يغن عمرو للمترو - وتكفل شعبان عبدالرحيم بذلك - لكنه غنى للرئيس - واحد مننا - وغنى لجمال مبارك فى حفل زفافه أغنياته المعتادة.. لم يقترب عمرو من النظام - الذى كان يريد منه الكثير - إلا بالطريقة التى تضمن له عدم غضب النظام من ناحية.. وعدم الارتباط الكامل واحتكاره من ناحية أخري.. لذلك وحينما غنى للرئيس من كلمات مجدى النجار.. غنى الرجل بهذه العقلية:

«اللى ضحى لاجل وطنه.. لاجل ما يعود النهار
واللى اسم مصر دايما.. كان له طاقة الانتصار
اللى حلمه حلمنا
واللى فرحه فرحنا
اللى نهر النيل بيجرى جوه دمه ودمنا
يبقى واحد مننا
أيوه واحد مننا..»

ليس مهما بعدها أن نسأل.. لماذا أراد عمرو أن يقول لنا إن النيل ومصر والرئيس شيء واحد:

«اللى يرفع اسمها.. يبقى أغلى عندنا
من حياتنا نفسها.. يبقى واحد مننا»

حتى حياتنا نفسها أصبحت لدى مجدى النجار وعمرو دياب أرخص من غلاوة الرئيس عندنا.. لا أتهم عمرو دياب ولا ألومه.. فهو ابن عصره.. ابن فكرته.. مثله تماما مثل عمار الشريعى الذى كان يرى فى غنائه لمبارك «اخترناك» و«احنا معاه لما شاء الله» مجرد مشاركة فى زفة العريس.. الذى هو الرئيس.. هل نحن فى حاجة إلى أن أعيد عليكم ما قاله عمنا سيد حجاب ومن ألحان عمار الشريعى نفسه:

«قالوا لفرعون يا ظالم
مين فرعنك.. قال عبيدي
حين نخوا تحت المظالم..
وانساقوا للمرعي.. بايدي»..

هل تم «سياقنا» جميعا إلى «المرعى» مثل الأغنام بأيدينا؟!.. أعتقد لا.. فالكثيرون لم يغنوا للنظام فى عز قوة النظام.. وحاربوه بحناجرهم.. ومن بينهم عمار الشريعى نفسه!!

obeikandl.com

قصة الألبوم السياسى المجهول لفاروق الشرنوبى..
ولماذا عاد فى «ميدان التحرير»؟

أغنية المقاومة فى عصر مبارك

obeikandl.com

من السهل حتماً أن تغنى للرئيس.. أى رئيس.. ومن البساطة والأريحية أن تغنى لإنجازاته وأن تنشد فى حضرته وأن ترقص فى حلقات ذكر محاسنه وفتوحاته.. أى فتوحات.. لكن من المؤكد حتماً أن الأصعب أن تهرب من الغناء له.. أو أن تغنى ضده.

ولأن عصر مبارك لم يكن كله غناء من نوع واحد.. فقد كان من الطبيعى أن توجد أغنية ضده كما كانت هناك أغنيات له ومعه.. لكن من المؤكد كذلك أن الأغنية المناوئة لعصر حسنى مبارك لم تجد طريقها للناس عبر الأبواب الشرعية.. فقد وصلت إلينا كثيراً وهى تقفز من الشبابيك بقدم مكسورة.. تعانى من حصارها وحصار مبدعيها.

يتصور البعض أن أغنية المقاومة لا تظهر سوى فى عصور الاحتلال وهذا فرض مبدئى صحيح.. لكن لأن المبدعين الحقيقيين لا يرضون عادة بما هو كائن وكثيرا ما يطمحون إلى الأجمل والأعدل والأكمل بحكم تكوينهم.. فمن الطبيعى أن تظهر أغنية مختلفة.. مناوئة للسياسات المحدودة الفقيرة التى تتضاءل منافعها أمام أحلام الشعراء والملحنين وذوى الحناجر المشاكسة.. وأصحاب الأحبال الصوتية غير الكاذبة.

هذه الأغنية عرفت طريقها إلى الناس منذ اليوم الأول لعصر مبارك.. فقد كان الرجل امتدادا للسادات وأفكاره وسياساته - حتى دون أن يعلن عن ذلك - ولأن العلاقة بين السادات ومعظم مطربى ومبدعى أيامه لم تكن على ما يرام.. فقد استمرت هذه العلاقة، ونمت فى عصر مبارك بالتبعية بداية.. ثم استقلت وأصبحت موجهة له شخصياً.. كرد فعل لسياساته.

يقول د.جلال أمين أستاذ الاقتصاد المعروف فى كتابه «شخصيات لها تاريخ» ص «١٠١» إنه «فى غمار الحملة الإعلامية التى دارت على قدم وساق لإعادة انتخاب الرئيس مبارك لفترة رئاسة ثالثة خرج علينا أحد الكتاب بصيغة جديدة بحجة قديمة لتأييد الرئيس فكتب مقالاً بعنوان: «سأقول نعم.. لأننى لا أستطيع أن أقول لا».. ورغم أن كاتبنا الذى ينقل عنه

جلال أمين كان يقصد أن إنجازات مبارك تجعله لا يستطيع أن يرفض إعادة انتخابه.. إلا أن كثيرين كانوا يقولون «لا» بطريقتهم الخاصة.. فى مقال مهذب.. أو قصة ملغزة كما هو حال يوسف إدريس.. أو نهاية مسلسل درامى مثل الحلقة الأخيرة من مسلسل «عصفور النار» لأسامة أنور عكاشة ومحمد فاضل حينما خرجت القرية كلها لتواجه العمدة ـ عمدة احلوانية ـ «خلى بالك اللى بنى مصر كان فى الأصل حلواني» ـ محمود مرسى ـ وتخيره بين الرحيل عن القرية أو الموت، وكان الموت من نصيبه على يد أحد رجاله.. أو من خلال عمل مسرحى يستلهم التراث مثل «الملك هو الملك».. المهم أن الشبابيك كانت كثيرة ولم يعدم المبدعون الحقيقيون وسيلة للتعبير عن رفضهم لمبارك وسياسته. من شرائط الكاسيت السرية للشيخ إمام عيسى وفاروق الشرنوبى والحفلات الخاصة لأحمد إسماعيل ومحمد عزت، وحتى ألبومات الحجار ومنير الرسمية ومقدمات المسلسلات التى مرت من بين يدى صفوت الشريف دون قصد أو بقصد أحيانا ـ ربما لجعلها وسيلة للتنفيس عن الناس أو الادعاء بأن مصر تشهد قدراً كبيراً من حرية التعبير.. المهم أن هذه الأغنية وُجدت ووجدت لها جمهوراً يرددها ويتناولها فى أحيان كثيرة مثلما يتعاطى المدمنون كيوفهم.. وخلقت هذه الأغنيات مبدعيها كما خلقت جمهورها.. كلاهما وجد فى الآخر حمايته..وكان أمام هؤلاء تحد أكبر.. فقد بدأت فترة مبارك بعصر غنائى باهت ومائع ومبتذل أحياناً.. فكان على هؤلاء أن يقاوموا رداءة الغناء السائد من ناحية.. ورداءة أفكار الرقيب وسيفه من ناحية أخري..

الأولة بيرة.. وحشيش.. وخيانة

فى اليوم التالى لرحيل الرئيس السادات.. ألقت قوات الأمن – التى عجزت عن محاصرة قاتليه وكشف مخططهم – القبض على المغنى والملحن الضرير الشيخ إمام عيسي.. أما تهمته ـ وحسب ما حكاه لزميلنا أيمن الحكيم فى مذكراته التى ضمها كتابا يحمل نفس الاسم ـ فهى أنه قام بتوزيع ٥٠ زجاجة بيرة على «حوش قدم» المكان الذى كان يسكن فيه

- ابتهاجاً بمقتل السادات.. يحكى الشيخ إمام «أخذت أقنع فى الضابط بأننى لا أملك ثمن هذه الزجاجات الخمسين.. لكنه لم يقتنع.. وبقيت ١٥ يوماً فى الحجز إلى أن أفرجوا عني.. وكانت آخر مرة أدخل فيها السجن» نعم كانت آخر مرة بالنسبة للرجل لكن أغنياته ظلت سجينة عزف المثقفين وحجرات الطلاب.. وظل ممنوعاً من الإذاعة ومن السفر حتى عام ٨٤ حيث ذهب فى رحلة أوروبية غنى فيها فى عدد كبير من البلدان.

وبالرغم من أن مبارك بدأ عصره بإطلاق سراح من كان قد اعتقلهم السادات فى أحداث سبتمبر واستقبلهم فى قصر القبة فإن سجن أفكار المبدعين ظل قائماً مثل قرار منع الشيخ إمام من السفر والذى سقط بحكم قضائى وأعيد إليه جواز سفره.. لكنه لم يعد ذلك المغنى الثائر ـ إلا قليلاً ـ حيث افترق عنه رفيق رحلته الشاعر أحمد فؤاد نجم ـ لتبدأ المرحلة الثالثة من تجربة الشيخ إمام عيسى حسب قول الشاعر والكاتب الصحفى أحمد إسماعيل، فغنى لآخرين منهم زين العابدين فؤاد ونجيب شهاب الدين ومحمود الطويل.

«وشفت الناس
فتاوى تموت على قوتها
وناس بتصلى فى بيوتها».. إلخ

ولم يكن الشيخ إمام الذى غاب عن الحياة فى عام ١٩٩٥ وحده الذى غاب وعاد ليجلجل فى ميدان التحرير فى أحداث يناير ٢٠١١.. «مصر يأمّه يا بهية».. فهناك موسيقيون آخرون غابوا عنا مؤخراً سواء بالموت أو بالغياب القصرى الذى فرضته ظروف صناعة الكاسيت و«سوء الوسط الغنائي» الذى سلط علينا جحافله من أمثال عمرو دياب ومصطفى قمر وتامر حسنى وحكيم وغيرهم.. وهؤلاء كانوا ذراع السلطة الأقوى فى محاربة أى فن جيد وأى فنان مبدع ضد التيار.. ومن هؤلاء الذين غابوا الموسيقار ـ شديد الخصوصية - فاروق

الشرنوبى الذى عاد وأعاد حنجرة على الحجار فى ميدان التحرير بأغنيته الشهيرة «عم بطاطا» التى أفرج عنها التليفزيون الرسمى لتذاع معظم أيام يناير وفبراير.

فاروق الشرنوبى واحد من رواد الأغنية السياسية الجديدة والتى ظهرت فى عصر مبارك - التوصيف ليس لى ولكنه للكاتب العربى رجب أبوسرية فى كتابة المتفرد «الأغنية السياسية الجديدة فى الوطن العربي»، وفيه يرصد أبوسرية حركة الأغنية السياسية الجديدة فى الوطن العربي.. وفى قرائته لتلك الحركة فى مصر يرصد بدايات تجربة الشيخ إمام.. ومن بعده الملحن والمطرب عدلى فخرى صاحب «بابلو نيرودا .. وحكايات بهية» وكذلك فاروق الشرنوبى الذي بدأ خياته مطرباً متجولاً فى مسرح الفرقة وأصدر ألبوماً يغلب عليه الطابع السياسى والنقدي.. يقول رجب أبوسرية «له كاسيت يمتليء موسيقى تتدفق كالينبوع.. يغنى بالعامية المصرية غناء احتفالياً كأنه غناء المهرجان.. يصاحبه كورال موفق جداً فى تقارب طبقات ونبرات صوته من صوت فاروق وأجواؤه تشبه إلى حد ما أجواء الفنان الفلسطينى مصطفى الكرد.. ربما لأنهما أبناء أجواء فلاحية يرميان بكل طاقتهما الفنية لاستنهاض اجماهير.. ويستعرض أبوسرية فى تحليل بديع أغنيات ذلك الألبوم الذى لم تستمع إليه حتماً آذان أبناء جيل يناير ٢٠١١، ومنها «أنا ظل الشعب المصري» و«الجوع مش فارق مادام الصوت ممنوع».. وغيرهما ويضيف: «هو لا يسعى إلى أن يريح جمهوره بل إلى أن يقض مضاجعه وأن يخلق فى أوساطه حالة من الهياج العام.. إنه فنان ذو طاقة جماهيرية خارقة».

نعم هو كذلك.. وقد تيسر لى عند قدومى إلى القاهرة عام ١٩٨٩ أن أتعرف إلى فاروق.. وأنا أستمع إلى هذه الأغنيات وغيرها فى جلسات خاصة كان يحضرها فنانون مثل على الحجار ومدحت صالح وهدى عمار، وسياسيون مثل حمدين صباحي، وصحفيون وممثلون، بل وشاركت معه فى مهرجانات كان يغنى فيها تلك الأغنيات المناوئة لعصر مبارك.. ومنها ما استمر فى رفض لسياسات السادات فى صلحه مع إسرائيل..

«واللى اعتدى جاى بابتسامته يعتدي
بدل البنادق.. بالرايات وقابلني
بدل المدافع.. بالبنوك والبورصة
وقال لسمسار الوطن.. ليك حصة
وده يقول كتير.. وده يقول اتوصي
وانت ما تستعناك حروف البصة
أنت اللى خلّعت السجر أولادك
وداريت بأجسادك بدن دبابة
آدى التاريخ خلع القميص فى بلادك
وكتب على الجدران يفط كدابة».. إلخ

ومنها أغنية رائعة ترصد استمرار ظلم المواطن المصرى من سبعة آلاف سنة وأظن أنها من كلمات محمود الطويل واسمها «الاسم صابر»، وهى لحن درامى شديد التوتر يتقاسم غناءه مع كورال فى نشيد مسرحى مدهش:

«الاسم صابر.. التهمة مصري
السن أصغر.. سن عصري
رغم انسدال الشيب ضفاير
من شوشتى لما لتحت خصري..
الحكم: من ٧ آلاف سنة وأنا هنا راقد سجين
أطحن على ضراس الحجر.. من الضجر وأبات حزين
سألنى سائل: حبستك طالت وليه؟
ده لأنى طيب.. وابن نكتة وابن إيه»..

ولأن فاروق معجون بسيد درويش ومدرسته التعبيرية، ولأنه قارئ جيد لشعر العامية المصرية.. كما أنه خطاط ورسام موهوب، فإن ذلك كله وفر له قدرة رائعة على تلحين قصائد العامية المصرية لكبار شعرائها وشبابهم من أمثال فؤاد حداد وسيد حجاب وأحمد فؤاد نجم ونجيب شهاب وجمال بخيت ومحمود جمعة.. وهو الأمر الذى جعله متفرداً بين أبناء جيله بقدرته على لتلحين للدراما - سينما ومسرح وتليفزيون - وللأصوات المصرية المهمة ذات القدرة الفائقة على الأداء: على الحجار ـ الحلو ـ ايمان البحر درويش.. وساعده ارتباطه السياسى باليسار المصرى لفترات أن يكون واحداً من فرسان المرحلة الأولى من عصر مبارك وهو ما سمح لمطربى هذا الجيل بغناء ألحان فاروق.. فكانت ألبومات «لم الشمل» للحجار و«نفسي» و«طير فى السما» لإيمان البحر و«باحلم على قدي» لمدحت صالح وغيرها حاضرة فى سجل الأغنية المناوئة لمبارك.

وقبل أن ندخل إلى عالم تلك الأغنيات ومطربيها وظروف خروجها إلى الناس.. أقف عند أغنية شهيرة لفاروق خرجت بصوته فى حفلات وشريط كاسيت أيضاً وغنتها من بعده عزة بلبع اسمها «أنا المصلوب».. يقول فاروق فى لحن يترنح وكأنه يصور عملية الصلب:

«وكل ما أطل..
أنا المصلوب على بابك بإيد الكل
يا عشقى يا اللى أعتابك طواها الذل
أضم الشمس وترابك.. وأموت فى الضل»

لم تكن الفترة الأولى لحكم مبارك مستفزة للناس.. ورغم ذلك كانت تلك الأغنيات ترصده باعتباره استمراراً للسادات. كان موقف مبدعى اليسار واضحاً من مسألة التطبيع ظهر ذلك كما سبق وأشرت لأغنية الأبنودى وفاروق الشرنوبى العالم الثالث»، وهى أغنية

سرية لم تطبع على كاسيت أو تذع فى حفل رسمي.. لكن الأبنودى نفسه عاد ليكرر نفس موقفه ومن منبر رسمى هذه المرة.. من التليفزيون نفسه ولكن من خلال عمل درامى رائع هو مسلسل «النديم».. الذى حفل بمجموعة من الأغنيات المدهشة التى منحت للحجار رخصته الأولى لاختراق عالم الجماهير العريضة بأغنيات سياسية مناوئة وعبر «شباك المسلسلات التاريخية» مع الإحالة لعصر مبارك بدون تكلفة موقف تصادمي:

«الحزن محاوطكي
وهمك تاعبكي
وليه مش قادرة تبكي
الأعيان خانوكي
سارقين طين أبوكي
لعدوك باعوكي.. ولإيد الزمن
باعوكى وشافوكى وهما بيدبحوكي
وضحكوا وفاتوكي.. وقبضوا التمن
عروكى فى ميدانهم.. ولا واحد أدانهم
وعلوا أدانهم.. وبقالهم جرس
جلادك محامي.. وحاميكى حرامي
وبإيه ينفع كلامي.. يا ساكنة الخرس؟»

هكذا وبدون مداراة اتهم الأبنودى مبارك «حاميها» بأنه جلاد.. وحرامي.. لكن إبراهيم عبدالفتاح وفى أغنية سرية رائعة اتهمه بأنه قاتل بأجر وأشار إلى ذلك بوضوح: وربما كانت تلك أول مرة يشار فيها إلى ضلوع مبارك فى مقتل السادات:

«يا اللى أنت أيامك بانجو
تسيب الاسكواش تلعب تانجو
من المنصة إزاى تنجو
إن لم تكن دافع أجرة..
الله الله.. يا بدوى جاب اليسري
شى الله يا سيدى القباري
الدنيا مش بس كبارى
مين اللى حدفك على باري
خدت الحشيش.. سيب الخمرة»..

وعن الكباري..والهبش..والنهب..وظهور حيتان رجال الأعمال وفساد المطبخ السياسي.. هناك عشرات الأغنيات تضمنتها مجموعة من الأفلام.: والمسلسلات.. والمسرحيات.. والأغنيات السرية التى لا تزال تعيش فى أدمغة جيل كامل من مثقفى مصر.

obeikandl.com

obeikandl.com

حرب عم بطاطا.. مع كتكوت والرئيس.. وتنظيم الجهاد

obeikandl.com

ولدت فى عصر عبدالناصر الذى أحن إليه رغم أننى لا أذكره – العصر والرئيس.. ولعبت وكبرت وحلمت فى عصر السادات الذى لم أستفد منه وأكاد أكرهه – العصر والرئيس.. وتغربت وانكسرت ونجحت وخفت وعشت عصر مبارك الذى لا أحبه ولكننى لا أكرهه – العصر وليس الرئيس.

أكاد أقولها بلا مواربة.. أنا ابن ذلك الجيل الذى لم يعرف رئيساً سوى مبارك.. لكنه عانى من سياسات السادات.. ومن أحلام عبدالناصر..

فى صباح ذلك اليوم البعيد لم يكن يهمنا نحن مجموعة اللاعبين فى غيط عم «سعيد عنتر» سوى أن نستثمر يوم الإجازة بطوله فى اللعب.. وألا تبلى تلك الكرة الشراب التى صنعناها من خرق «هدوم» كانت ملقاة على الجسر.. وفيما نحن نلعب ونتوقف لنستريح فى شمس أكتوبر الحالمة بمص أعواد القصب الأحمر من غيط مجاور إذا بشاب يكبرنا عمراً يجرى وهو يصيح: السادات «اتكتل». توقفت أنفاسنا تماماً.. فقد كنا فى تلك القرية البعيدة من صعيد سوهاج نعرف ماذا يعنى «الكتل»، لكننا حتماً لم نكن نعرف ماذا تعنى كلمة «الرئيس».

فى المساء وفيما كانت جذوع الأشجار الناشفة تتهاوى فى أيدينا نحن الصغار لتجهيز عدة الشاى وبوص الجوزة.. كان الكبار قد حسموا مصير القاتل.. أما المقتول فلم أسمع له سوى جملة «لا تجوز عليه سوى الرحمة».. كان القاتل هو سر «العقدة» وبخاصة

حينما علمنا أنه من الصعيد.. وأن اسمه «خالد»!! ولم يدم انشغالنا بالأمر طويلاً فقد كانت أمامنا فى الصباح التالى مهمات أعظم من «خالد» ومن الرئيس المقتول.. كنا على موعد مع الحلاق.. «حلاق القرية الوحيد وحكيمها».. ومع «الخياط»، ومع مناقيش الغريبة فى المساء، ومع الحلم بليلة عيد لا تعوض فى سينما قصر الثقافة.. هو العيد إذن.. وإذا حضر العيد لا مجال للرئيس أو لقاتله..

وعلى بعد ساعة من قريتى.. كانت أسيوط قد قرر نفر من مريديها ألا يمر العيد.. «تعرضت المدينة لهجوم مسلح.. مفاجئ.. شرس من إحدى جماعات تنظيم الجهاد الذى قتل السادات».. أرادت هذه الجماعة- كما يقول عادل حمودة فى كتابه قنابل ومصاحف – السيطرة على المدينة وانتزاعها وإعلان «الثورة الإسلامية المسلحة»!!

وأسفرت العملية عن قتل عميد شرطة وثلاثة ضباط و٦٢ جندياً و٢١ شخصاً من الأهالى وإصابة ١٥ ضابطاً و١٩٠ جندياً و٣٢ مواطناً.. وحسب كتاب عادل حمودة نفذ العملية ٨٤ شاباً منهم ٤٥ طالباً بالجامعة والثانوى و٣ مدرسين و٩ من الحرفيين.. وحسب أستاذنا عادل حمودة -مرة ثالثة- فإن ما حدث «كان فصل الختام فى مسلسل درامى دام عاشته مصر اسمه تنظيم الجهاد».. وهو مسلسل دارت أحداثه فى أماكن متفرقة.. الإسكندرية، المعادى، شبرا الخيمة، نجع حمادى، الواحات وغيرها.. وهو مسلسل اختلط فيه المصحف بالخنجر والدم بالفكر والفقر بالعنف والسلاح بالذهب والدين بالسياسة والدولار بالمسجد.. وكان أمير التنظيم اسمه «عمر عبدالرحمن» الذى قالت النيابة العامة إنه اشترى جهازاً لطبع شرائط كاسيت سجل عليها أحاديث مناهضة لنظام الحكم والحض على كراهيته.. وكانت النيابة العامة توحى بذلك لما حدث فى إيران.. حيث كان شريط الكاسيت أحد أسلحة الخومينى فى نشر دعوته والتحريض على الثورة..

عدوية وكتكوت وعم بطاطا

كان الكاسيت إذن هو أحد اسلحة العصر المهمة.. جاء به عمر عبدالرحمن من السعودية.. وجاء به أقاربنا المرتحلون من ليبيا والعراق.. وكان سلاح أحمد عدوية الذى اخترق به العالم كله رغم منعه من الغناء رسمياً فى معظم الإذاعات العربية – فيما عدا بعض التقدميين منها – ووصل عدوية إلينا ومعه «السح الدح امبو».. التى حكى نجيب محفوظ فى تفسيره لها بأن مجذوباً فى الحسين كان يمشى عارياً ملتحفاً بذكورته مشيراً إلى ما يدل عليها، مغنياً لها «السح الدح امبو»، فيما فسرتها بعض العناصر اليسارية- والعهدة على عمنا صلاح عيسى فى مقال له منشور بكتابه «تباريح جريح» وسبق نشره بتاريخ ٦ أبريل عام ١٩٨٧ – بأنه مطرب مضطهد لأنه اشتراكى، كأنه يقول «يا عينى الواد.بيعيط الواد عطشان اسقوه»، وأنه يحلل الصراع الطبقى تحليلاً سليماً لأنه يغنى «حبة فوق.. وحبة تحت»!!

وبعيداً عن أننى أحب صوت عدوية وأننى أراه – الآن – مطرباً شعبياً فذاً إلا أنه وبعد أن قضى على أسطورة عبدالحليم وتخطاه فى سباق الكاسيت وجد من يخلفه ويتربع على عرش الأغنية المصرية من بعده.. كانوا ثلاثة هم كتكوت الأمير.. ومعوض العربى.. وحسن الأسمر الذى فاجأ حبيبته بأن الحب عندها «تمثيلية» وأنه «جم حبايبك ولا راحو.. هيه.. هيه»، قبل أن يسرد علينا بعدها بسنوات قصة حياته التى صارت كتاباً مليئاً بالعذاب!!

وفيما بين رحى جنود عمر عبدالرحمن الذين وجدتهم أمامى فى مدرجات جامعة أسيوط، ورحى عدوية وتلاميذه الذين جاءت بهم كاسيتات الخليج إلى قريتى مع نور الكهرباء الذى لم يصل إليها إلا فى مطلع الثمانينيات.. كان ملاذنا فى الألبومات

التى تأتينا مهربة عبر القادمين من القاهرة للشيخ إمام عيسى وفاروق الشرنوبى وشرائط فيروز التى كان يشتريها لنا الشاعر والكاتب الصحفى الرائع كمال عبدالحميد – غادر القاهرة منذ سنوات واستقر فى أبوظبى بمؤسسة المرأة اليوم وتقدم باستقالته من الأهرام حينما خيره مرسى عطاالله بين العودة للإمرات وبينها- وكانت سيرة بنى هلال زاداً شعبياً نتلقفه عبر إذاعة الشعب مع جابر أبو حسين والأبنودى – طبعت بعد ذلك فى شرائط كان يشتريها أهلنا من العتبة. فى الوقت نفسه كان أن تعرفت على عمنا أحمد منيب فى منزل أحد أقاربى فى قريتى لتى كانت كوّنت كورالاً للأطفال يغنى لفؤاد حداد وجاك بريفير وفدوى طوقان وعمر نجم.. وقد جاء عم أحمد منيب يومها إلى منزل قريبى الشاعر الراحل د.أحمد أبورحاب ليسمع هذا الكورال الذى كتب عنه فؤاد معوض مانشيت الغلاف فى مجلة الإذاعة والتليفزيون فى مارس ١٩٨٧!!

نعم.. عرفتهم جميعاً فى وقت واحد.. أحمد منيب وفاروق الشرنوبى وفؤاد حداد ومجدى نجيب.. فى مواجهة «السح الدح امبو».. وتلاميذ عمر عبدالرحمن.. وعمرو دياب أيضاً!

هذه المقدمة كانت أمراً ضرورياً لنعرف ما تعنيه نشأة أغنية المقاومة فى عصر مبارك.. وكيف أنها لم تكن تواجه حرباً ضد السلطة والرقابة فقط، ولكنها كانت تواجه العنف والتطرف من ناحية ثانية.. كما تواجه موضة الأغنية الشبابية التى فتحت لها الأجهزة الرسمية الباب على مصراعيه مع اختراع ما سمى بعد ذلك بالفيديو كليب.. وربما كانت أغنية فرقة المصريين «ماتحسبوش يا بنات إن لجواز راحة.. وما تزعلوش يا بنات إن قلنا بصراحة.. إن الجواز عمره.. عمره ما كان راحة» هى أولى الأغنيات التى تم تصويرها تليفزيونياً.. حيث ظهرت إيمان يونس – أخت إسعاد يونس – وراء حبل الغسيل وهى تغنى لحن هانى شنودة.. هذه الأغنية أقول ربما كانت بداية ما عرف باسم الفيديو كليب..

ونهاية عصر الفرق الغنائية التى كثرت فى المراحل التالية لثورة الشباب عام ١٩٦٨ ومنها برزت: النهار.. والأصدقاء.. والحب والسلام التى جاءت من الإسكندرية..

فى تلك الأثناء كان بليغ حمدى يبحث عن بديل متطور وعصرى لأغنيته الطويلة.. كان قد سيطر على أذواق الجميع بأغنياته لفايزة أحمد «حبيبى يا متغرب».. وميادة الحناوى «الحب اللى كان» ومن قبلهما حليم «مداح القمر» و«موعود» وغيرهما.. ووردة بالطبع. كان بليغ يعبث بأوتار عوده بحثاً عن أغنية سريعة.. قصيرة.. وربما كان الألبوم الأول لعلى الحجار هو اللبنة الأولى فى ذلك الطريق – اسمه «على سفر» وكتبه عبدالرحيم منصور وأنتجه بليغ حمدى نفسه واشتهرت منه أغنية «على قد ما حبينا» التى أعاد الحجار غناءها بتوزيع جديد فى ألبومه «حوا وآدم».. ونفس الأمر فى أغنيته التى قدم بها محمد الحلو «أشكى لمين» والتى نجحت بعد ذلك بصوت محمد منير الذى كان من بين أربعة أسماء اختارها بليغ ليبدأ رحلته الجديدة معها وهم الحجار ومنير والحلو وتوفيق فريد..

وفيما كان كل هؤلاء يبحثون عن أغنيتهم الخاصة كان أن أطل إيمان البحر درويش بأغنيات جده خالد الذكر ومعها بعض ألحان زكريا أحمد، لينتبه الجميع إلى ابن السادسة عشرة.. ذلك الشاب الوسيم مصرى الملامح صاحب الابتسامة التى تدخل للقلوب بدون استئذان.. ثم كان أن قدم تجربته الخاصة «نفسى».. والتى شكلت مع تجارب منير الأولى وألبوم «الأحلام» لعلى الحجار الجسر الذى عبرت عليه الأغنية التى اصطلح لها إبراهيم عيسى وعبدالله كمال اسم «الأغنية البديلة».. وكان أن التقى فاروق الشرنوبى الذى جاء من الإسكندرية فيما تسبقه نجاحاته مع إيمان البحر.. بجمال بخيت الذى تخرج فى إعلام القاهرة قبل رحيل السادات بعام واحد..

فاروق ينتمى إلى الطبقة المتوسطة.. عرفه جمهور طلبة الهندسة بالإسكندرية فى نفس الوقت الذى عرفته فيه أوساط مثقفى القاهرة ورواد مسرح الغرفة الذى أغلقوه.. فيما تعود جذور جمال بخيت إلى بلدتى سوهاج – نفس البلدة التى خرج منها عشرات

من قادة تنظيم الجهاد والجماعات المتطرفة.. ربما كان جمال - الذى انتمى فى عامه الأول بالجامعة إلى نادى الفكر الناصرى – ناصرياً بالاسم، فقد أطلقت أمهات كثيرات فى الستينيات اسم جمال على أبنائها محبة فى الزعيم «أبوخالد».. جمال لم يستمر فى نادى الفكر الناصرى سوى عام واحد ولم ينضم بعدها لأى تنظيم حيث أدرك أن الشاعر يقود ولا يقاد.. الشاعر صاحب رسالة مستمرة.. فيما السياسى صاحب تكتيك مرحلى قد يدفعه للتحالف مع الشيطان من أجل تنظيمه أو حزبه.. جمال الذى ظل مخلصاً لأفكار عبدالناصر واليسار بشكل عام.. كان طبيعياً أن يلتقى بفاروق المنتمى لليسار – التجمع تحديداً – هو الآخر.. وكلاهما وجد فى حنجرة الحجار ضالته..

كان جمال بخيت قد قدم قبل لقائه بفاروق الشرنوبى أغنيتين لمحمد منير «أم الضفاير» و«يا غربتى فى ليلى الساهر» من ألحان أحمد منيب.. كما قدم للحجار نفسه ولكن من ألحان أحمد الحجار أغنيتين فى ألبوم «الأحلام».. والتقى الثلاثى كثيراً فى عمارة امباير بجاردن سيتى – كان فيها استوديو صوت شهير أعتقد أنه مازال قائماً – إلا أن تلك اللقاءات لم تسفر سوى عن «المعرفة والعيش والملح».. ليغادر بعدها جمال بخيت إلى الإمارات.. وهناك يكتب «أنا كنت عيدك».. وفى سفرية للحجار إلى هناك التقيا وأسمعه كلماتها.. فطلب الحجار ترشيح ملحن.. فرشح له فاروق . فكانت واحدة من أهم أغنيات ذلك الجيل.. وألبوم من أغنى وأعذب ألبومات الحجار:

أنا كنت عيدك..

تنقص نجوم السما أزيدك

الفجر يغرق.. آخد بإيدك

واجمع سواد الألم فى عينى

وأصب نبض الهوى فى وريدك..

ومن جمال بخيت إلى رضا أمين ووائل هلال وعماد حسن ليصنع معهم الأغنيات الأجمل فى بدايات مدحت صالح «باحلم على قدى» و«رسمت قلبك ألف جناح»، وإيمان البحر درويش «نفسى» و«طير فى السما» وغيرهما.. ليكمل بعدها مع جمال بخيت تحفتهما «لم الشمل».. ويكاد يكون هذا الألبوم هو أول ألبوم سياسى كامل فى عصر مبارك يتحمس لإنتاجه منتج فرد هو «أنور عبدالوهاب» رحمه الله.. كما تحمس له الرقيب حمدى سرور الذى لولاه ما خرجت كل الأغنيات ذات الحس السياسى فى ذلك الوقت.. يحكى جمال بخيت:

«كنا قد أقمنا عدداً من الأمسيات.. أشعارى وعود فاروق.. ومن بينها «مرمر زمانى».. و«لم الشمل».. وكنا قد اتفقنا مع إيمان البحر على غنائهما – وتعطل المشروع – وفى أمسية بوكالة الغورى جاء فاروق حسنى إلا أنه لم يتحمل ذلك الغناء وخرج قبل أن يكمل الأمسية.. وجاء بعدها حمدى سرور الذى أخبرناه بأننا ننوى تقديم هذه الأغنيات فى ألبوم فقال إنه سيصرح بها.. وحملنا تلك الأغنيات للحجار الذى قرر غناءها.. وتم تجهيز الألبوم لتقوم بعدها أحداث غزو العراق للكويت ويظن الناس أننا صنعنا ذلك الغناء كرد فعل فيما هو كان جاهزاً من قبلها»!

انتهت شهادة جمال بخيت عن ذلك الألبوم.. وعن فاروق الذى استمر فى التعاون معه من خلال أغنيات للسينما من بينها أغانى أفلام مثل «الآخر».. و«جواز بقرار جمهورى».. مثلما استمر فاروق فى سكته كواحد من أهم ملحنى جيله.. ممن قاوموا بالغناء.. وكانت آخر أعماله على المسرح غناء وتمثيلاً مسرحية «الساحرة».. وألبوم «آن الأوان» لوردة الجزائرية والذى حوى أغنيات مسلسل حمل نفس الاسم.. بعدها اختفى فاروق تماماً.. اعتزل التلحين والغناء والناس لأسباب غير مفهومة حتى لأقرب

أصدقائه.. ولم يظهر لا هو ولا أغنياته حتى جاءت أحداث يناير ليتلقف الثوار تحفته «عم بطاطا» ويرددوها فى الأيام الأولى:

«عم بطاطا يزك الزكة
يعبر سينا ويفتح عكا
وبيصبرع الجار السوّ
خمسين سنة ويقول
دول فكة»

وتفنن المتظاهرون فى تغيير بعض الكلمات التى كانت تقصد إسرائيل لتصبح «وبيصبرع الجار السو.. ٣٠ سنة ويقول دول فكة» فى إشارة للمدة التى حكمها مبارك.. ليفاجأ هؤلاء وقبل رحيله بيومين بالتحديد يوم ٩ فبراير بإيمان البحر درويش فحملود ليغنى بينهم:

«يا بلدنا يا بلد..
هوه من امتى الولد
بيخاف من أمه
لما فى الضلمة تضمه
صدقينى خفت منك..
خفت منك صدقينى»..

عاد إيمان البحر.. وعاد الغناء الجميل بعد ٣٠ سنة من الغياب.. لكن فاروق الشرنوبى لم يعد سوى بعد أربعة أشهر كاملة من يناير.. عاد ليشارك فى مبادرة إحياء الأغنية الوطنية التى أعلنها أسامة هيكل بأغنية لأسامة الشريف.. ثم يلحن للحجار «ضحكة المساجين» من كلمات الأبنودى.

obeikandl.com

حفيد سيد درويش غادر الإسكندرية بعد أن احتلتها الجماعات الإسلامية.. وأباطرة الميناء

obeikandl.com

فى الصعيد ـ حيث كنت أعيش ـ الليلة بليلتين.. الليل طويل البال - كما يقول الأبنودى ـ لكنه كان يعبرنا ويصنع حواديت ذاكرتنا.. أما فى المدينة فالليل لا وجود له.. هو مجرد ساعات تمر.. لا ونس ولا أصحاب.. ولا أغنيات.. إلا من رحم ربى..

هكذا كانت أيامنا الأولى فى الفترة الرئاسية الأولى لمبارك.. ليل طويل دامس لا يجرح ظلمته سوى ظلال اللمبة نمرة عشرة..

كانت هناك لمبة نمرة خمسة أيضاً.. ولا أذكر أن هناك فارقاً بينهما.. كلتاهما تعمل بالجاز.. وكلتاهما لها شريط قطنى يتم بله قبل أن يصل إليه عود ثقاب الكبريت.. أما «رتينة» الكلوب فلها حكاية أخرى. وعادة ما كنا لا نجىء به ـ الكلوب يعنى ـ إلا فى المناسبات الخاصة مثل واجب العزاء أو فى الأفراح ـ والكلوب لمن لا يعرفه هو وسيلة إنارة أكثر تطوراً من لمبة العويل ويعمل بالسبرتو!!.

ولشعراء التراث معه حكايات أذكر منها رباعية شهيرة كان يغنيها شاعر ربابة محلى فى سوهاج تقول:

«الزمن ده زمن الكلوبات
لمض العويل بطلوها
وادى عيال بلا أبّات
عمّالة تحلف بابوها».

فى ذلك الزمن كان يحيرنا لماذا تمر أعمدة الكهرباء الخشبية من أمام بيوتنا تنقل كهرباء السد العالى إلى بلاد «بحرى».. دون أن نستفيد منها؟!.. وظل أهلنا يطاردون نائب مجلس الشعب ـ كان أحد أقربائى ـ حتى جاءت الأعمدة الحديدية ـ دون سلك ـ وتم نصبها عقب انتخاب مبارك رئيساً لفترة ثانية!!.

جاءت الكهرباء إلى بلادنا إذن.. وعرفنا التليفزيون الأبيض والأسود ماركة «نصر».. وكان يبث قناتين فقط.. وعرفنا موعد الحفلات.. وكان نجم إحداها مطرباً شاباً ممصوصاً يغنى كلمات غير مفهومة بالنسبة لنا نحن الأطفال لكن موسيقاه جميلة وسهلة الهضم والحفظ.. كما أن كلمات أغنياته بها رطانة مثل تلك التى يقولها الوبيون.. هكذا عرفناه وعرفنا أنه حفيد سيد درويش.. وعرفنا أنه يناديا:

«هز الهلال يا سيد..

بركاتك لأجل نعيّد»..

وأن «سى قفاعة» يقرأ دائماً مجلة آخر ساعة.. وأنه «مصرى.. كريم العنصرين».. وفى ما جاء بعد ذلك من ليال طويلة ـ اتفقنا أن الليلة عندنا بليلتين ـ أنه تخرج فى هندسة الإسكندرية عام ١٩٧٨.. وأن حياته فى كوم الدكة أثرت فى تكوينه ـ مثلما أثرت فى تكوين جده خالد الذكر..

قرأت فيما قرأت أنه لحى كوم الدكة سمة غريبة وهى أنه مكان مرتفع يطل على الإسكندرية من كل الجهات، وأن هناك علاقة ما بين جغرافية المكان - من حيث إنه مرتفع عن كل الأحياء السكندرية - وأبنائه حيث إنهم ينظرون إلى من عداهم باستعلاء وعزة نفس.. كما عرفت أن النقابات العمالية فى مصر خرجت من هذا الحى.. وأن الحرفجية كانت لهم بطولات فى مقاومة المحتل فى ذلك الحى.. وأن شوارع الحى من الممكن أن تذهب منها لأى مكان فى الإسكندرية.. أى أنه مفتوح على كل ثقافات البشر.. فى هذه المساحة المتنوعة عاش إيان البحر.. وربما كان هو ورفاق جيله عماد حسن وهانى شحاتة وحمدى صديق - كان مطرب جامعة الإسكندرية - وفاروق الشرنوبى وحسام الدين شوقى هم آخر الأجيال التى شهدت النشاطات الثقافية الساحرة فى جامعات بنت الإسكندر.. حيث أغلق أى نشاط فنى أو ثقافى فى الجامعة منذ عام ٨٢، حيث تواتر على تلك الساحة أبناء الريف ـ البحيرة وما جاورها ـ من

المنتمين للجماعات الجهادية وسيطروا على الاتحادات الطلابية تماماً ليخنقوا كل همسة لها علاقة بالفن أو ما يشبه ذلك.. لتنام المدينة ـ التى لا ينام أحد فيها كما يقول إبراهيم عبدالمجيد ـ من المغرب مثلها مثل الصعيد تماما.. حدث الكثير لبنت الإسكندر التى أودعها السادات فى آخر أيامه أمانة فى رقبة رجل صعيدى جاء من أحد أحراش جهينة ليعمل شيالاً فى الميناء ثم يصبح فى زمن الهبر والصعود غير المبرر واحداً من الاباطرة حتى يوصيه رئيس البلاد بها خيراً!

وهكذا استمر صعود طبقات غريبة إلى جوار صعود أبناء العشوائيات التى التهمت أمامها كل قيم التعدد الثقافى والعرقى التى تميز الإسكندرية..

فى نفس التوقيت الذى غادر فيه إيمان البحر الإسكندرية كان بليغ حمدى يغادر القاهرة متهماً على ذمة القضية إياها ـ والتى كانت إلى جوار قضايا غريبة أخرى مثل اغتصاب فتاة المعادى ـ إلى باريس.. فيما صمت كمال الطويل طويلاً، وكان محمد الموجى يبحث بين فينة وأخرى عن مساحة ضوء.. فيما يصدر حلمى بكر لحنا فى شهر ويحارب بالكلام فى الصحف والتليفزيون من سماهم رواد «الأغنية الهبابية» بقية أيام السنة.

فى ذلك الوقت غادر حميد الشاعرى الإسكندرية التى كان يقيم فيها ويدرس إلى القاهرة ليبدأ رحلته مع المزداوية دون أن يحقق نجاحاً كبيراً.. ثم تبعها بألبوم مع يحيى خليل جعل الساحة الغنائية تنتبه له وتشعر بأن شيئاً جديداً يحدث فى عالم الموسيقى.. وكان محمد منير قد ثبت أقدامه جيداً بثلاث تجارب مهمة مع أحمد منيب وهانى شنودة وعبدالرحيم منصور وسيد حجاب ومجدى نجيب.. وكان أن قرر إيمان البحر أن يقدم تجربته الأولى فى الألحان المصنوعة له خصيصاً، فكان أن شارك فى إحدى حفلات التليفزيون بأغنيتين جديدتين هما «بشرة خير»، و«مكتوب لى أغنيلك» فيما خاف مسئولو التليفزيون بدايات عهد صفوت الشريف من كلمات أغنية نفسى ومنعوا

إيمان من غنائها ليسمعها الناس بعد ذلك فى الألبوم الذى ضم إلى جوار الأغنيات الثلاث أغنيات أخرى منها على سبيل المثال ـ لا الحصر ـ «قول يا قلم». وبعد عام ونصف عام من ذلك الوقت يغنى إيمان فى حفل بنادى هليوبوليس نفس الأغنيات ومن بينها «نفسى».. لينفجر البركان ويبحث الناس فى محلات الكاسيت عن كلمات عماد حسن وألحان فاروق الشرنوبى.. وكلمات هانى شحاتة وحسام الدين شوقى وألحان إبراهيم نصير - الأخير ترك مصر بكاملها وسافر إلى سلطنة عمان ولم يعد:

«قول يا قلم
قول يا قلم..
اصرخ ولم الناس
افتح لنا الكراس
صفحة قصاد عينّا..
نقرا ضمايرنا..
قول يا قلم قول»..

وكان أن اشتهرت «نفسى».. التى كان قد كتبها عماد حسن ضمن عمل مسرحى قدمته كلية العلوم بجامعة الإسكندرية من إخراج إيمان الصيرفى.. وسمعها إيمان من فاروق فى منزل حمدى صديق فى أول لقاء يجمعهما.. وكان من الطبيعى أن يلتقى نفس الفريق المدهش مرة ثانية فى ألبوم جديد انضم إليه الشاعر عوض بدوى.. ويصبح الألبوم الجديد هو رهان ذلك الفريق فى أغسطس ١٩٨٨.. وفى نفس اليوم الذى صدر فيه الألبوم كان الانفجار الذى تشظى فى وجه الجميع.. «لولاكى» للمطرب البدوى على حميدة.. الذى جاء به سامى الحفناوى وحميد الشاعرى ليصبح أعجوبة الغناء المصرى فى سنته.

كان على إيمان البحر الذى يقدم أغنية مختلفة وبسيطة فى آن واحد.. أن يقاوم الرقابة والسلطة.. وعلى حميدة أيضاً.. ونجح «طير فى السما» رغم ذلك.. وانتقل نجاحه ليصبح

عنواناً لفيلم سينمائى أنجز بعدها ولتزيد السينما من جمهور أغنيات الألبوم ويعرف الناس أغنيات مثل «اشيلك يا ضنايا شيل» - التى كتبها على المحمدى – وكذلك «اتكلمى يا حروف بحق».. و«حلم التمنى»..

«افردى ضيك فى عينى
دوبى عتمة سنينى
امسحى عنى الآلام
خضّرى قلب الجناين..
نورى قلب المداين
رفرفى بجناح حمام..
عايز اشوفك لما باغرق
وسط بحر الكون جزيرتى
مهما أغرب أو أشرق
ما لتقيش غير حضنك انت
تفتحى قلبك تضمى..
تمسحى بالود همى
يجرى بالدمع الكلام»..

نجح إيمان البحر.. وأصبح له لونه وناسه.. وصار الأول فى السعر والطلب فى معظم فنادق القاهرة..

وراحت السينما تخطب وده لتقدمه فى أكثر من عمل.. وتتوالى ألبوماته – «شمس ودفا».. «لحظة».. و«لا عمرك وحشتينى».. وفى هذه الألبومات الثلاثة انضم للفريق السابق

شعراء آخرون مثل جمال بخيت ومحمد فضل وإبراهيم عبدالفتاح وملحنين آخرين أبرزهم رياض الهمشرى.. وصارت أغنيات إيمان منشوراً سياسياً بجماليات خاصة:

«يا مصر يا حافظة قرآنك وأنا جيلك.
فى وقت الشدة أدعيلك وأناجيلك
لو تنادينى م الغربة أنا أجيلك.
ومهما تموت هنا أجيال.. أنا جيلك.
مكتوبلى أغنيلك وأغزل مواويلك.
وإن جف نبع الحب.. يروى العطش نيلك».

واستمر الحال هكذا حتى منتصف التسعينيات ليحبط إيمان مثل آخرين من جيل الغناء البديل ويبحث عن وجهة أخرى.. وأخذته أفكاره للبحث عن صلاح الدين.. وعن «سيرة النبى».. فى نفس الوقت الذى ذهبت به فيه خيالات الجماعات المتطرفة إلى آخرها مما جعل كثيرين - ومنهم كاتب هذه السطور - يطلبون من إيمان - الذى كان قد أصدر ألبوماً بدون موسيقى - أن يعود إلى موقعه فوق قمة الأغنية الوطنية واضحة المعالم والتى لا تتقاطع مع أهداف لآخرين لا علاقة لرسالتهم بالفن إطلاقاً.. وبقى لإيمان من تلك التجارب المتتالية «اصحى يا أيامنا» و«الجرح الأليم» وغيرهما رسالته الواضحة فى الدفاع عن القدس فى وقت لم يكن يدافع فيه عنها أحد.. واختلطت مقاومة إيمان داخل مصر بمقاومته للعدو الصهيونى.. ثم غاب طويلاً.

فى سنوات الغياب تلك كان أن ذهبنا أنا وإيمان البحر إلى المنيا للمشاركة فى أمسية ثقافية لطلاب كلية الآداب.. واشترط إيمان أن يذهب محاضراً وألا يغنى.. وعندما وصلنا إلى الاستراحة التى خصصتها لنا المحافظة حاوطنا الطلاب من كل جانب.. وجاء أحدهم محتفياً ومرحباً ليخبر إيمان بأنهم قد جهزوا فرقة موسيقية من الطلاب تحفظ كل أغنياته.. فانفعل إيمان - ظناً منه أن الطلاب خدعوه وأصدروا تذاكر وأن

الأمسية تحولت إلى حفل لا إلى ليلة تكريم وحوار.. وكان أن اتفقنا على أن يظل هؤلاء الطلاب وأعضاء الفرقة فى مكانهم، فإن أراد إيمان الغناء صاحبوه..

وتوجهنا إلى المدرج.. خارجه وجدنا ما يقرب من أربعة آلاف طالب وقد وقفوا على أرجلهم وأخرجوا لهم سماعات كبيرة بعد أن امتلأ المدرج بأربعة آلاف أخرى..

وقدمنى الصديق الأديب د.جمال التلاوى لأدخل إلى المسرح ويستقبلنى الحضور بالتصفيق.. ثم قدم إيمان البحر الذى دخل وسط عاصفة هستيرية من الشباب الذين لاحظت أنهم يجلسون منقسمين، البنات على اليمين والشباب على اليسار – منعاً للاختلاط – فيما لاحظت كذلك أن أكثر من ٩٠٪ من الحاضرات منتقبات.. وكان غريباً أن يفاجأ إيمان – لا يزال واقفاً - وأنا – بهذه الآلاف تغنى فى نفس واحد:

«اتمشى بين ضلوعى
واتحمى من دموعى
واشبع من قلب جوعى
تصاحبنى فى الوطن!!

واستمر غناء الطلاب الرهيب وإيمان لا يزال واقفاً دموعه تسح ولا يعرف ماذا يفعل أمام هذا الغناء المدهش والمنضبط لدرجة غير معقولة.. لنفاجأ جميعاً بإيمان يترك خشبة المسرح وينزل وسط «الفرقة» ويطلب الميكروفون ليشارك كل هذه الآلاف بالغناء:

«وما دام ع الأرض ماشى
ونهار عمرك ما جاشى
وبتسأل عن سنينك
دى سنين فاتها الزمن
صاحبنى.. فى الوطن»..

ولخمس ساعات متواصلة.. استمر إيمان فى الحوار.. والغناء مع الطلاب حتى وصل عدد الأغنيات إلى ٣٠ أغنية.. وانتصف الليل ليخرج إلى مكتب د.محمد التلاوى عميد الكلية حيث تسلم إيمان درع الجامعة، ومنه إلى مكان العشاء، ليفاجأ بمئات من أهل المنيا يحتضنونه ويحادثونه حتى السادسة صباحاً موعد انطلاق القطار العائد بنا.. وتصورت أنه بعد ٤٨ ساعة كاملة من اليقظة فإن إيمان سينام.. لكنه لم يتوقف عن الانبهار.. وعن الحديث عن الصعيد وعن الشباب الذى ظلمناه واتهمناه — زوراً — بأنه لا يريد الغناء الجميل.. وهبطنا إلى محطة رمسيس حيث افترقنا كل إلى بيته على وعد بأن يكرر إيمان غناءه وتواصله مع كل طلاب مصر فى كل جامعاتها.. لكنه ومن حينها ـ منذ خمس سنوات تقريباً ـ لم يفعل.. ولم يذهب إلى هؤلاء الشباب لأسباب أعرف أنها خارجة عن إرادته.. لكنه يوم ٩ فبراير الماضى.. ذهب إليهم.. وهناك وجدهم فى ميدان التحرير يحملونه على الأعناق ليغنى لهم من جديد..

«إيدى واحدة
وانتى إيدك
برضه واحدة
مدى إيدك ويّا إيدى
امسحى دمعة وليدى
عايز اصرخلك وعاجز
اسمعك أو تسمعينى
نفسى أقولّك ألف حاجة
بس آه لو تفهمينى»..

ويظن إيمان أنها فهمت.. وأظن — وبعض الظن ليس إثماً - أنها لم تفهم بعد.

لماذا لم يذهب منير
إلى ميدان التحرير؟!

obeikandl.com

obeikandl.com

لم يذهب محمد منير إلى ميدان التحرير.. هذه حقيقة.. محمد منير كان موجوداً.. وساطعاً.. وقاطعاً.. هذه حقيقة أيضا.. كيف إذن نتهمه بالغياب والحضور فى وقت واحد؟!.. هل هو الموناليزا، كل منا ينظر إليه من زاويته الخاصة فيراه كما يريد؟!.. نعم.. سيرة وغناء ووجود ذلك الفتى الأسوانى النبيل مثل الموناليزا.. أكثر من وجه.. وأكثر من اتجاه.. لكنها جميعاً لوحة واحدة مثل النهر تغرق فى تفاصيله.. لكنه واضح وكأنه حقيقة واحدة مؤكدة.. إنه موجود فى كل وقت وفى كل «الميادين».. هل فكر أحدكم مرة أن يصحو من نومه ولا يجد نهر النيل فى مكانه؟.. يتزحزح النيل.. ويجرح أرضاً وبيوتاً وناساً.. ويطرح بدلا منها على الشاطئ الآخر أرضاً وبيوتاً وناساً وأغنيات!! لكنه أبداً لا يغادر مصر!!

صباح ١٠ يونيو ١٩٦٧ كان غضب المصريين كبيراً وعنيداً مثل النهر.. فخرج الكثيرون منهم دون هدف سوى نفض الجرح من العروق.. والإعلان بصوت عال أمام سفارة الأمريكان فى جاردن سيتى أننا لم ننهزم.. كانوا طلاباً فى العشرينات لا يعرف أحدهم اسم الآخر، لكن - وحسب شهادة الراحل د. هشام السلامونى فى كتابه الجيل الذى واجه عبد الناصر والسادات - «كل منهم كان يفهم قصد الآخر ونيته.. ودون اتفاق مالت الرؤوس نحو الأرض وحملت الأيادى ما تيسر من الطوب والزلط لتقذف به الرمز الأمريكى القابع فى قلب القاهرة.. وفجأة حدث ما لم يتوقعه أولئك الشبان الغاضبون لجرح وطنهم.. ارتفعت أعيننا فجأة لنفاجأ بفرقة من الخيالة تهاجمنا.. بل تدهمنا دون أن تعطينا فرصة لاستيعاب الصورة.. كانوا قد أطلقوا علينا الخيول والقنابل المسيلة للدموع وكأن مآقينا كانت تنقصها الدموع وكأن أرواحنا وأجسادنا كان ينقصها شىء غير النكسة ليدهمها ويهرسها».

نعم هى نفس الخيول التى عادت فى ٢ فبراير الماضى لتدهس شباناً آخرين خرجوا ليرفضوا هزيمة أخرى على بعد خطوات من نفس المكان.. لا فرق بين خيول نظام عبدالناصر وقنابله المسيلة للدموع.. وبين خيول وجمال مبارك . ولا فرق بين أولئك الشبان الذين هاجمتهم الأحصنة فى ٦٧ وأولئك الذين هاجمتهم الخيول والجمال فى ٢٠١١ سوى أن تلك السنوات بين فاصلتين هى عمر محمد منير الذى عاشه فى القاهرة حاملاً حدوتته الخاصة جداً.. حدوتة مصرية.

عاش منير زمن عبدالناصر فى أسوان منتمياً إلى حلمه.. حلم الزعيم.. وحزيناً على جذوره التى شتتتها الثورة «علشان السد».. كانوا يريدون كبح جماح النهر.. ذلك الطائش النبيل - كما وصفه د. جمال حمدان فى موسوعته الرائعة شخصية مصر - ورضى أبناء النوبة أن يفقدوا أحلامهم وقراهم وذكرياتهم ولا ينظروا وراءهم فى غضب طالما أن الأرض التى جرحها عبدالناصر ستصبح ماءً ونوراً وناراً تطهر جروح المصريين جميعاً.. رضوا لكن الغربة ظلت تطاردهم طيلة عصر عبدالناصر.. وكل عصر السادات.. حتى خرجت فى أواخر عصره فى حنجرة محمد منير.

«علمونى عينيكى أسافر
علمونى أفضل مهاجر».

والتقت غربة محمد منير.. بغربة عبدالرحيم منصور - كلاهما من الجنوب - مع غربة سيد حجاب «ابن المنزلة».. مع غربة مجدى نجيب الذى سجنه نظام عبدالناصر لأنه كان يحبه.. ولأنه كان يحب الحرية أكثر من نظام عبدالناصر.. تلك الغربة تحولت إلى غرابة فى كلمات سيد حجاب التى ضمها نفس الألبوم «إيه يا بلاد يا غريبة.. عدوة واللا حبيبة».. يا نهار أسود.. عدوة.. كيف تصل العلاقة بين الأم والابن.. الحبيب والحبيبة إلى حد العداوة؟!

يقول عمنا وأستاذنا المبدع النبيل الراحل محمود عوض: «إنها مشكلة.. لأن حب مصر فيه شيء من الرومانسية التى تجعلنا نقول فى قرانا إن مصر هى أم الدنيا.. مصر هى فقط جزء من الدنيا.. إنها يمكن أن تكون كل دنيانا التى تهمنا بغير أن تكون هى كل دنيانا التى نعيش فيها.. إن عشقنا لها فيه شيء من العمى ولكن حبنا لها فيه قاعدة من الاختيار».. نعم هو العمى.. ونعم أيضاً هو الاختيار.. والعيون التى اختارها محمد منير فى بداية مشواره فى يناير ٧٧ وما تلاه لم تكن عيوناً لا ترى، كانت عيون زرقاء اليمامة التى تكشف وتستبصر الطريق.. والاختيار هو سر عمر محمد منير الذى جعله – مثل النهر – لا يفارق مصر وحنجرتها طوال تلك الفترة!

هذه زاوية من زوايا موناليزا منير.. يمكن أن تراه من خلالها إن أردت.. وهناك زاوية أخرى هى علاقة السلطة بأغنيات منير.. هى نفس الأغنية كانت البداية.. لقد رفضت السلطة الرسمية أغنية سيد حجاب وهانى شنودة.. ومنعتها.. مثلما رفضت بعدها حدوتة مصرية.. وجميع أغنيات ألبوم الملك هو الملك.. فى ظل تولى صفوت الشريف لوزارة الإعلام.. و«بحبك» و«ازاى» فى ظل وزارة أنس الفقى.. إذن لم يكن الأشخاص هم من منعوا أغنيات محمد منير السياسية.. هى «السلطة» التى لم يقف الرجل على بابها أبداً.. رغم أنها رحبت به كثيراً.. والسنوات الخمس الأخيرة شهدت مشاركة منير فى عدد كبير من البرامج لشافكى المنيرى، وأميرة عبدالعظيم، وغناءه لمقدمة السيرة الهلالية، ومشاركته فى آخر حفل جماهيرى شهده الرئيس السابق – حفل القوات الجوية – يومها نزل منير إلى الصالة ليصافح الرئيس ومال عليه وحدثه قليلاً.. وبعدها بساعتين كنت أهاتفه سألته: ماذا قلت للرئيس؟. قال: «كنت أحدثه عن مشكلة القرصنة التى تتعرض لها أغنياتنا وكيف أن ذلك الأمر سيخرب الاقتصاد الوطنى».. وسألته: وهل فهم؟.. لم أكن أقصد إساءة لمبارك.. ولكنى أردفت أقصد

هل فى هذه الثوانى يمكن للرجل أن يفهم مسألة معقدة مثل هذه القضية.. فقال منير: ربما أشار لأحد مساعديه بتقصى الأمر.. ثم إننى لم أكن أعرف ماذا سأقول له.. هل أدعو له مثلاً بالصحة وراحة البال».. إذن لم يكن الشخص هو هم منير.. كانت مصر.. وسياسة النظام.. النظام الذى هو بعيد عن شعبه.. وهناك مسألة أكبر من ذلك بكثير أن منير طيلة كل هذه السنوات يفكر فى هم عام.. إنسانى.. يتجاوز حدود التنظيمات السياسية وأفكارها.. هو ابن اليسار المصرى – هكذا حسبوه دائماً – أصدقاؤه من اليسار كثيرون.. لكنه لم ينضم يوماً إلى أى تنظيم سياسى.. ومن السلطة كثيرون يحبون منير ويأنسون له ولأغنياته.. لكنه لم يغنِ لهم.. براح المدع أوسع بكثير لدى منير من عباءة التنظيم السياسى.. أو المذهبى. ولهذا فهم الكثيرون جملته الأخيرة فى حفله الأخير حول السلفية والإخوان بكثير من التعسف.. منير يفكر كما يغنى:

«لا يهمنى لونك.. لا يهمنى اسمك ولا مكانك..
يهمنى الإنسان.. ولو مالوش عنوان»..

هى اختيارات منير منذ بدايته.. منعوا أغنية هانى شنودة وحجاب فجاء بهما فى الألبوم الثانى «بنتولد» فى ٤ أغنيات كاملة.. هو ضد المنع.. هو ابن الحرية الكاملة:

«بافتح زرار قميصى
للنسمة وللأمانى
وأنور فوانيسى
وأملا العالم أغانى
باغنى للمحبة.. وللنجم الملالى
ده الغنوة فى قلبى شابة
وطايرة فى العلالى
آه يا هوى يا سيسى

ده أنت لسانى وحصانى».

نعم كانت ولا تزال أغنية منير شابة.. تغنى للمحبة ولا يزال يغنى على هواه.. ولا يزال حصانه فى يده.. لم يستطع أحد أن يمسك لجامه.. سواه.

كان أحمد فؤاد نجم ولفترة طويلة مكروها من السلطة ومطارداً فى بعض الأوقات، فكان أن غنى له منير ألبوماً كاملاً من ألحان حمدى رؤوف ضم أغنيات مسرحية «الملك هو الملك». وفى الوقت الذى كان ينشر فيه نجم وعلى الملأ قصيدته ضد توريث الحكم لجمال مبارك كان منير يسجل له أغنيته الشهيرة «بحبك» والتى تم منع إذاعتها بعد أن تكلفت حوالى نصف مليون جنيه من حساب محمود بركة إلا أن الأغنية تسربت عبر النت وحفظها الجميع:

«تنام الدموع فى العيون الهواجع
وتسهر دموعى فى حبك يا مصر
تهون الظنون والشجون والمواجع
وأكدّب ظنونى واحبك يا مصر
هاقرب واقرب
ومش ممكن أهرب
وتنزل دموعى على خدودى تشرب
تلاقى الرموش والخدود والمباسم
مراسم وصورتك عليهم يا مصر..
بحبك. بحبك.. بحبك يا مصر»

لم يهرب منير إذن من ميدان التحرير.. ولا من أى ميدان آخر.. وكما يقول عم محمود عوض مرة أخرى ولأن «فى علاقة مصر بأبنائها هناك مشاعر مؤكدة بالأمومة.. ولأنها ليست مشاعر خيالية ورومانسية هائمة تربطنا بمصر كأبناء لها.. ولأن مصر فى حياة كل منا أم حقيقية موجودة فى حياتنا اليومية وتترجم نفسها بعلاقات محددة تربطنا بهذا التراب وهذا الشارع وهؤلاء الجيران».. ولأن منير فهم هذه العلاقة جيداً كان لابد أن يبحث عن فؤاد حداد.. إمام شعراء العامية وكبيرهم وسيدهم وهذا الرجل علاقته بمصر غريبة.. فهو الذى أحبها كما لم يحبها أحد.. لم يتاجر بها .. ولم يخذل عروبتها.. لم يدغدغ مشاعرها لتنام فى وقت الهزيمة.. بل هو الذى حاول إيقاظها وتسحيرها «اصحى.. يا نايم».. ذلك الرجل نفسه هو الذى أخذته سلطتها فى الستينيات ورمته فى معتقل الواحات.. وهو الذى خرج من سجنه ليحبها أكثر وعلى طريقته:

«خلى الندى من أحلامك
يسقى النبات من أيامك
حطى اللى خلفك قدامك
تلقى البلد عامرة الليلة»

قرأ عمنا حداد ما فيها جيداً واعتصره فى حنجرة منير.. مثلما قرأها محمود عوض.. جيرة.. وأهل.. وعشرة.. وفى كل حى.. ولد عترة.. وصبية حنان.. ومن منا لم يأسره لحن عبدالعظيم عويضة الساحر مثل أسطح عمائرها ومثل حواديت ناسها الصغيرة:

«ساعة ما تضمك مع أخوها
تلاقيه بيغير
ولما ترفع قلتهم تلاقيه عطشان..
زمانه ماشى بخطوة يضم
زمانها كبرت وبقت أم..

زمان جواب جاى لها بيجرى على العنوان».
وهنا أيضا:
الفجر بيلاقى المغرب
وبييجى ويروح
والليل يطل على الشارع
شباك مفتوح
هنا الرصيف وهنا السلم
وهناك يا سطوح..
متعلقة أكمام النونو بديل الفستان»..

يا الله.. هل هناك من يزاحمه شك فى أن حنجرة محمد منير هى مصر بكل ما فيها.. أمس واليوم وغداً؟.. هل هناك من يخالجه نفس شارد بأن فستان بنوتة فؤاد حداد هو نفسه المريلة الكحلى بتاعة بنت «صلاح جاهين»؟.. هل هناك من يجادل أن الخطر الذى نستشعره الآن.. وتلك الغيوم.. وذلك الرمادى الأزرق الداكن الذى يخطف عيون المصريين.. الآن هو نفسه ذلك الخطر الذى رأته عيون عبدالرحمن الأبنودى وتنفسته أنامل بيانو كمال الطويل:

«بره الشبابيك غيوم
بره الشبابيك مطر
وأنا خايف.. وحاسس بالخطر»؟!

ألم يكن ذلك الخوف على الحرية.. وتلك الرؤية الواعية لعلاقة الأم بابنها.. الحبيبة بحبيبها.. مصر بنا.. هى نفسها العلاقة التى استغربها ورفضها الأبنودى وأعلنها حرية على لسان جيتار محمد رحيم فى آخر ألبومات منير «يونس»:

وده عشق إيه ده

اللى من غير أى حرية؟!

هذه زاوية وحيدة أرى منها علاقة منير بميدان التحرير وبمصر وبنا.. فباقى زواياه تحتاج منى إلى أضعاف هذه الوريقات أضعافاً.. ووقتاً براحاً لا تطاردنى فيه الكوابيس والأسئلة الحائرة التى طاردت مجدى نجيب من قبل «سؤال باسألك إيه آخرة الترحال».. ويدهشنى فيه الرعب على مستقبل أبنائنا فى هذه البلاد.. ولا أحتاج أن أقسم كما أقسم فيه منير بسورة الإسراء.. أن الدم كله سواء.. لست فى حاجة لأن أتذكر ما قاله عمنا صلاح جاهين مع منير عن الكلمة التى هى نجمة كهربية فى الضباب فبمثل كلمات أغنيات منير نحاول أن نقرأ ما حدث لنفهم ما سيجرى ومعه نحزن ونرتعش ونخاف ونفرح لأن.. «الحزن شاطر.. والفرح شاطر.. ولكنى قادر فى الحزن أفرح» هكذا كان اختياره على الدوام.. أن الأغانى لا تزال ممكنة.. وأن المشهد الذى شاهده منير وهو يرقد على سريره فى أحد مستشفيات ألمانيا أوائل فبراير الماضى حينما كانت كل فضائيات العالم تنقل نفس المشهد «شاب ملتح يجلس فى دائرة.. حوله شباب وشابات من كل الأعمار وتجاوره لصقاً فتاة عفية ترتدى الجينز - قال لى منير إنها ابنة أحد أفراد أسرة العدل- وجميعهم يغنون «يا ناس يا ناس يا مكبوتة هى دى الحدوتة».. ذلك المشهد عاد منير من ألمانيا يوم ٧ فبراير بعد أن تماثل للشفاء من جراحته الخطيرة فى الفقرات ليبحث عنه فى الميدان.. فى كل ميادين مصر.. وما زلت أنا الآخر أبحث عنه.. لكننى- وأرجو ألا أكون مخطئا- علمت أنه غادرنا منذ صعد يوسف القرضاوى منصة ميدان التحرير.. ذلك اليوم نفسه الذى كان من المقرر أن يذهب فيه منير ليغنى بجسده فى الميدان لكنه لم يجده - المشهد لا الميدان طبعا!

obeikandl.com

اختار سكة فؤاد حداد فحدد مصيره منذ أغنيته الأولى

وجيه عزيز.. «أغنية جيل على باب الله»

obeikandl.com

أنا مش أول واحد من الأرياف يحب المدينة.. وبنات المدينة.. والعيش الأفرنجى.. والطعمية السخنة.. أحبها قبلنا جميعاً على الشريف فى فيلم يوسف شاهين البديع «الأرض»، وربما أحببنا الطعمية من شحتفته عليها ـ على الشريف طبعاً ـ أكثر مما أحببناها فى الواقع..

كما أننى من المؤكد لا أملك من الحكايات مثل مئات جاءوا قبلى من الصعيد يبحثون عن الدفء.. والنور.. وأسماؤهم فى أعمدة الصحف.

أعرف ذلك جيداً.. كما أعرف أن ٢١ سنة كاملة من عمرى مرت فى هذه المدينة وأنا أبحث عن أغنية تشبهنى.. فما وجدت إلا أغنية «شبه اللى ضاع منى» على رأى عمى وعم الجميع فؤاد حداد..

كنا خمسة أفراد نجلس تحت شجرة شتوية فى فناء حرم جامعة سوهاج.. الدنيا كانت «عصر».. والامتحانات لسه فاضل عليها كتير.. فجأة وقف صاحبى وزميلى الروائى الجميل خالد إسماعيل منتفضاً: «تيجى نسافر مصر دلوقتى».. ولم يعطنى فرصة للرد.. ولم أبحث أنا أيضاً عن تلك الفرصة.. وفى الطريق إلى المحطة جمعنا ما فى جيوبنا.. فلم يكن سوى سبعة جنيهات.. اشترى خالد علبة سجائر «سوبر» وقطعنا تذكرتين لمحطة رمسيس.. وركبنا..

وقبل أن يهل العشاء.. لم نكن قد وصلنا إلى أسيوط بعد.. مر أحد أولئك الرجال الذين يخطفون الحروف الأخيرة من كلماتهم السريعة وهم يعلنون عن بضاعتهم «العى.. والبى.. والبلا الأحمر» - ستعرف بعدها أنها العيش والبيض والبلح الأحمر لكنها ظاهرة «الكشكشة» قد أحدثت فعلها عليه.. وهى ظاهرة لغوية تخص إحدى القبائل النازحة من الحجاز ـ راجع كتاب د.طه حسين «مستقبل الثقافة العربية».. فكان أن اشترى خالد «عيشاً وبيضاً» دون بلح أحمر بانطبع ليس لأنه لا أموال إضافية لدينا ولكن لأن الرجل لا يبيع البلح فى هذا الوقت رغم أنه يضمه إلى السلعة التى ينادى عليها. وأكلنا.. وشبعنا.. وشبعنا من مسامرات أهالينا القادمين للقاهرة للعلاج.. أو بحثاً عن فرصة عمل.. أو لزيارة أولياء الله «يكن اللى ما بتخلفش تخلف». ونام الجميع فجأة انتفض خالد كعادته وأعلن أننا سننزل فى بنى سويف.. وقبل أن أعطيه إجابة كنا قد نزلنا.. المحطة خاوية.. وجيوبنا كذلك.. وشنطة خالد ليس فيها سوى تحقيقات صحفية جاء بها لصحيفة الأهالى وجميعها ينضح بمعارضة النظام طبعاً.. وتركنى بالشنطة على الرصيف الخاوى سوى من رجال الشرطة مرتبكاً.. فأسهل شىء فى تلك الأيام كان القبض عليك بتهمة الانتماء للجماعات الأصولية ـ ولن تجدى أوراق انتمائنا لصحف معارضة. وبعد ساعة عاد خالد بجبنة قريش.. وعيش.. وبيض وخيار.. فيما ظلت الجنيهات الخمسة كما هى.. وشبعنا للمرة الثانية.. لكن كان علينا الاختيار.. إما أن ننتظر ست ساعات كاملة حتى موعد أول قطار قشاش قادم من الصعيد.. أو التضحية بالجنيهات التى نملكها وركوب سيارة أجرة.. وكان أن قرر خالد وللمرة الثالثة لم يكن يحتاج لأن أعترض فاجتماع التحرير فى العاشرة صباحاً ولا مفر.. ركبنا وشغل السائق كاسيت السيارة ليدهمنا بخطبة نارية للشيخ كشك يجلد فيها الجميع بمن فيهم

شادية لأنها جلست مع ابن عمها بمفردها حتى غاب القمر.. والألعن أنها تعترض على الله وتطلب من الشمس فى أغنية أخرى قال إيه «ماتحماشى»!.

ولم ننتظر حتى «حمو» شمس ذلك اليوم، فقد داهمنا السائق بأن المنيب هو آخر الخط.. وعلينا أن نمشى بمحاذاة النيل من المنيب حتى شارع نجيب الريحانى حيث مقر صحيفة المساء.. وحيث دكة خشبية أمام المقر وصاحب «نصبة شاى» نعرفه من زيارات سابقة فى انتظار فارس خضر ليدفع ثمن الفطور.. وأجرة تاكسى حتى مقر الأهالى.. ويتكفل بالباقى.

فى الطريق من المنيب إلى وسط البلد.. كان خالد يبحث عن برج القاهرة، فهو الدليل الوحيد على أننا وصلنا.. لكن البرج وكأنه غير موجود مع غبش الصباح.. وكنت فى سرى «ألعن بنى سويف» وبائع السميط الذى أكل حروف الكلمات.. والمدينة بكاملها حتى وإن كانت ستأتى لنا بالمجد فى صرة. ومن يومها وأنا لا أحب بنى سويف. ومن يومها أيضاً وأنا «شىء» يعبر هذه المدينة.. ومن يومها أيضاً وأنا أعرف صوت وجيه عزيز ابن بنى سويف الذى جاء للمدينة مثلنا:

«يدعبس فى الرزق عن ضحكة
ويتسمح فى قفا نكتة
ويتمسخر على حاله».

أيام العجب والموت ! !

كان عمنا الروائى الكبير ـ وش مصر وقلبها الطيب ـ خيرى شلبى قد ورطنى فى محبة فؤاد حداد.. ومثله فعل عمنا محسن الخياط فى زيارة له لجامعة سوهاج وهو يهدينا حكاياته عن بهية.. وأدخلنى طائعاً صاغراً راضياً ومتيماً إلى جنة أشعاره الراحل النبيل بلدياتى عمر نجم.. فكان أن رحت أبحث عن كل ما له صلة بعم فؤاد.. حتى أستطيع أن أظل فى القاهرة – دون قلبى وعائلتى التى تركتها فى سوهاج – معى فقط فؤاد حداد وأشعاره.. وشوية أمل :

«كان معايا المية فى الزمزمية
والوطن فى الذاكرة الإلزامية»..

ولم أكن وحدى أفكر فى نفس الشىء.. كان هناك حسن رياض الذى رأى أن الليل فى هذه المدينة حالك «بتنعس العمدان وقلب البلد همدان».. والشاعر الأقصرى النبيل أحمد فؤاد جويلى الذى لم يحتمل وعاد إلى هناك وهو موجوع منها.. لكنه لم يفقد ابتسامته فقد ظل يتنقل من حجراتها البائسة إلى مقهى زهرة البستان إلى شركات سياحية عدة لم يدم عمله بإحداها أكثر من شهر وهو صاحب اللغات المتعددة والصوفية الواحدة.. وأغنيته التى لا تشبه أحداً إلا وجع فؤاد حداد:

«عيونك حزينة تلف البيوت
وقلبك ينادى يهز السكوت
بلادك ميلادى..
لو اسكت.. تموت..

ولم نسكت ولم ننجرح.. لكننى كنت خائفاً من نصيحة الشيطان لفؤاد حداد:

«قول لفنك مهما كان قادر
مستحيل حتغير الماضى..
مستحيل حتغير الحاضر..
مستحيل حتغير المستقبل»!

ولأننا كنا نحب هيكل فى ذلك الزمان، كان أن تابعنا ترجمات كتابه المهم «الانفجار» وفيه يؤكد أن التاريخ حى فى الحاضر ومؤثر فى المستقبل. ولأننى أحب فؤاد حداد أحببت موسيقى وجيه عزيز.. ومن بعده أحمد إسماعيل ومحمد عزت وجميعهم من مريديه.

كان سعر الذهب العيار واحد وعشرين قد بلغ ٣٠ جنيهاً هى كامل مكافأتى من الأستاذة سكينة فؤاد مديرة تحرير مجلة الإذاعة والتليفزيون، فاكتفيت بأن اتفقت مع صاحبة تجربتى العاطفية الأولى فى المدينة إن «الدبلتين يكفوا».. وكان أن أقيل محمد زكى بدر وجاء عبد الحليم موسى وقامت دوشة على نصر حامد أبوزيد بعد إصداره كتاب «مفهوم النص القرآنى».. وهجمت القوات العراقية على الكويت دون سابق إنذار، وأعلنت حكومة مؤقتة فى الكويت برئاسة العقيد علاء حسين الذى أعلن قيام «جمهورية الكويت الحرة»، وأخذت القوات الأمريكية أماكنها فى السعودية لتبدأ عملية «درع الصحراء» فيما وجيه عزيز يحتضن عوده فى شقة بسيطة بالقرب من أكاديمية الفنون يغنى لفؤاد حداد:

«كاوبوى دينامو
سايق غنمه
علق يافطة بعرض الريف
خلّى أميركا .. تستعمركا
ست شريفة.. غرضها شريف
..
اطلع على مراكبها الافطى
قولّها خدى خلجاتى ونفطى
دى المحبوبة .. جاتك غيبوبة
مدرسة حرة.. بالمصاريف»..

وحسب الأستاذ هيكل فى كتابه «الإمبراطورية الأمريكية والإغارة على العراق».. «بصرف النظر عن كل الخطوط الحمراء التى اجتازها العراق فجر أول أغسطس ١٩٩٠ حين اقتحم الأرض المحظورة لمواقع النفط فى الخليج فإن جورج بوش لم يكن مفاجأ بالدخول العراقى للكويت بل لعل العراق لم يكن فى تلك اللحظة بعيداً عن تصوراتهم لشكل المستقبل فى القرن الحادى والعشرين الذى كان قرناً لابد له فى تقديرهم -وبأى ثمن- أن يظل قرناً أمريكياً».. انتهى الاقتباس من الأستاذ هيكل لكن علاقتى بوجيه عزيز بدأت.

عرفت أنه وصديقيه الشاعر محمد ناصر على - أصبح معداً بالمنوعات ومقدماً للبرامج وآخرها «انت أكيد فى مصر» وشارك بالتمثيل فى أحد الأفلام السينمائية- والمخرج عادل أديب -لم يكن قد أخرج شيئاً وقتها- سوف يقدمون عملاً مسرحياً لإحدى جمعيات الصعيد للأطفال، وكان العمل مدهشاً فعلاً.. ثم واصل وجيه طرقه على

أبواب القاهرة بعوده وباختياره فقط:

«فنان فقير على باب الله
والجيب مافيهش ولا سحتوت
والعمر فايت بيقول آه
والقطر فايت بيقول توت»..

نعم.. بدأت الأيام تكر.. ونجاة تغنى لعبد الوهاب «أسألك الرحيلا».. لكن الأمريكان لم يرحلوا من العراق.. فيما رحل أهلنا من الكويت ومن العراق معاً.. جاء بعضهم يحمل أغراضه عبر الصحراء يتعثر فى أحجارها.. وعاد بعضهم الآخر محمولاً فى نعش مدون على أخشابه «الوفاة نتيجة هبوط حاد فى الدورة الدموية».. وتوقفت دورة القومية العربية إلى الأبد.. ولم تتوقف عجلة الانفتاح الأمريكى، وحلّت علينا لعنة «ما بعد الحداثة» فى كل شىء.. حتى فوجئنا بالزلزال يضرب وسط القاهرة.. وصحونا.. ونحن الذين لم نعرف فى قرانا أبداً ولا سمعنا حتى فى حكايات جداتنا يعنى إيه زلزال.. ويغنى وجيه:

«صحيتنى ليه يا شاويش.. يا شاويش
ده أنا كنت سارح فى الملكوت
لما بانام باحلم وباعيش
لما بافوق ما بافوقش.. باموت»

ثم يفاجئنا زلزال من نوع آخر اسمه الشاب خالد يغنى.. فتغنى معه القاهرة ولأسباب غير مفهومة «دى دى.. دي دى واه.. دي دى واه»!

ممكـــــن

وجيه عزيز اختار شلة فؤاد حداد . وفى الشلة مجدى نجيب.. وصلاح جاهين.. ومحمد ناصر.. ومحمد حسنى توفيق.. وكوثر مصطفى.. وعلى سلامة.. وإضافة لاختلاف وتمايز الكلمة التى اختارها وجيه سكة له.. فموسيقاه أيضاً مختلفة.. هو ابن الصعيد بتركيبته الموسيقية المتعددة.. ولكنيسة تأثيراتها المهمة فى اختيارات وجيه لمقاماته التى يبرع فى التنقل بين أغصانها «الكورد، العجم، النهاوند» فهو لا يميل كثيراً للمقامات المعقدة مثلما لا يميل لاستخدام الزخارف اللحنية المستوردة من تركيا وبلاد فارس والعراق.. ولأن محمد منير يبحث دائماً عن أصحاب التجارب التى تشبه تجربة وجيه كان أن التقيا -مجدى نجيب ومنير ووجيه- فى «ممكن – احزن شاطر – قلبى فى جيوبى» وعشرات الأغنيات التى أخذت من منير جرأته.. وأعطته طعماً جديداً غير طعم أحمد منيب وهانى شنودة وحسين الإمام.. واستمر هذا التعاون حتى ألبوم «طعم البيوت» حيث لحن له وجيه «معاكى ولو كان لزاماً علينا الرحيل».. وبالتوازى مع صوت منير استمر وجيه فى احتضانه لعوده والترحال من منتدى إلى آخر.. ليصدر ثلاثة ألبومات تضم تجربته كمطرب أولها «فنان فقير» ثم «زعلان شوية» ثم «ناقص حتة»:

«كل ما أوزن.. ألاقى ناقص
أقول بناقص.. لو هيه حتة..
أتارى لسَّه.. لسه
ولسه تاخد.. سنين وحتة

وحاجات تسيبنى.. وحاجات تاخدنى
لحاجات تخبَّط ف كل حتة
وأقول حَتفرج.. فى يوم حتفرج
ويوم ما تفرج..
على الله يفضل فى القلب حتة»..

لقد أكلت المدينة قلوب أبناء الريف والمدينة معاً.. فلم تترك لهم فيها «حتة سليمة»، لكنهم وأنا منهم ما زالوا يناكفونها ويقاومون.. وأغنية وجيه عزيز التى كسبت لها فى السنوات الأخيرة جمهوراً جديداً هو جمهور ساقية الصاوى التى حلت بديلاً لوزارة الثقافة فى السنوات الماضية، مازالت مستمرة فى مقاومتها للنظام.. وللقبح، وللأغنية الرديئة كذلك.. فرغم مرور عشرات الموجات منذ بدايته.. مثل موجة «مراسيل مراسيل» التى قادها إيهاب توفيق.. وموجة «هاودعك آخر وداع» التى قادها محمد فؤاد.. وتلك الموجة التى عزفت بجنائزيات مصطفى كامل.. ومن قبلها موجة الرقص «على واحدة ونص» التى أعادها صلاح الشرنوبى للوجود بحنجرة جورج وسوف صاحب حكمة «كلام الناس لا بيقدم ولا يأخر».. وحنجرة وردة التى أعلنت أنها «حرمت تحبه مايحبهاش».. ووسط ذلك كله وخلفه وأمامه طابور من المغنين اخترعه حميد الشاعرى حتى وصلنا إلى هذه الموجات.. ظل وجيه عزيز مثل المصرى الذى يراهن عليه ويغنى له:

«أزيح الهم باللقمة
وأدارى جروحى فى الهدمة
وأقول فى العشق موالـه
وفاكر فى الضحى.. صلاة عصرى
أنا المصرى»..

يتقاطع وجيه عزيز مع سيد درويش.. ويتقاطع فؤاد حداد مع بديع خيرى.. ويستمر السلسال بشاعر وراء شاعر يمسك بالمجداف مغاكساً للتيار باحثاً فى آخر النفق عن «حبة ضوء».. يستمر الخبط على السور، وربما ننفق كل العمر، كما يقول عمنا أمل دنقل «ليمر النور للأجيال مرة»..

ونصيحة وجيه الدائمة والتى حملها صوته إلى جانب صوت أحمد زكى فى فيلمه الشهير «هستيريا»:

«وإن ماقدرتش تضحك
ماتدمعش.. ولا تبكيش..
وإن مافضلشى معاك غير قلبك
إوعى تخاف.. مش حتموت..
هتعيش»..

وأدينا.. أكلت قلوبنا المدينة.. ولسّه عايشين.

obeikandl.com

حيثيات ضرب تامر حسنى فى «حضرة» الشيخ إمام!

obeikandl.com

يعيش الشيخ إمام عيسى هذه الأيام أسعد لحظات حياته.. فالرجل الذى ظل ٧٥ عاماً كاملاً بعيداً عن الأضواء والشهرة تبحث عنه دوريات الشباب فى مصر كلها الآن.

مساء الجمعة قبل الماضى السابع من يونيو الماضى.. كان المثقفون فى وسط البلد يحتفلون بذكرى رحيله.. وليس بعيداً عن مقر احتفالهم -شارع قصر النيل- عدد من السينمات تعرض الفيلم المأخوذ عن مذكرات رفيق رحلته أحمد فؤاد نجم.. وأغنيات الفيلم التى عاد بها أحمد سعد للتواجد - كواحد من أهم مطربى مصر حالياً - تحولت إلى رنات موبايل وفى المقدمة منها أغنية «حاحا».

هل تصلح هذه المقدمة لإعادة قراءة سيرة الرجل وعلاقته بما حدث فى يناير الماضى؟! أغلب الظن لا.. فذلك الشيخ النمرسى نسبة إلى أبو النمرس- حيث ولد والذى تحول عقب هزيمة يونيو إلى ظاهرة تخطت حدود حوش قدم تلك الحارة الضيقة التى عاش فيها نصف عمره تقريباً إلى معظم إذاعات الدول العربية، بل وتعدتها إلى فرنسا وروسيا والصين، حتى إنه ثالث المطربين العرب الذين استقبلهم مسرح الاوليمبياد.. هذا الرجل الذى يعتبره المثقفون فى العالم العربى رائد مدرسة الغناء السياسى فى العصر الحديث لا يمكن قراءة سيرته وعلاقته بما يجرى فى العالم العربى الآن من تلك الزاوية.

حياة الشيخ إمام وحدها تصلح لأن تكون حدثاً دراماياً لا يتكرر كثيراً.. حتى إن البعض قارن بينه وبين فيكتور جارا الموسيقى التشيلى الشهير الذى أصبح تميمة أى ثورة فى

العالم الثالث.. والذى تحكى المراجع أنه كان مجرد عازف للجيتار.. ظل يطلق موسيقاه المتمردة حتى أزعج سلطات بلاده.. فقامت بقطع يديه حتى لا يعزف.. فلم يعد بقدرته سوى الصراخ فتحول صاحب اليد الحادة إلى صوت حاد كان -حسب بعض المؤرخين- أهم أسباب ثورة تشيلى.. ووجد المقارنة بينه وبين الشيخ أنه - إمام يعنى- لم يكن يملك شيئاً سوى عوده وحنجرته، ورغم ذلك الوهن حاصرته السلطة فى ثلاثة عصور متتالية.. سجنه عبدالناصر وأقسم ألا يخرج من المعتقل «طول ما هوه عايش» يحكى صلاح عيسى أن الزعيم الفلسطينى نايف حواتمة كان فى زيارة ناصر وحاول التوسط للإفراج عن الشيخ إمام ورفيق رحلته الشاعر أحمد فؤاد نجم وصلاح عيسى، لكن عبدالناصر قفل الباب بجملته السابق الإشارة إليها.. وفعلاً لم يخرج الشيخ إلا بعد رحيل ناصر بشهور.. ولم تدم حريته كثيراً فمع نهايات عام ٧١ خرج الطلاب فى جامعة القاهرة ثائرين يطلبون تحديد موقف الرئيس من حالة الجمود.. إما حرب أو لا حرب.. وفى مذكراته التى سجلها الزميل أيمن الحكيم ونشرها على صفحات الكواكب قبل أن يضمنها كتاباً يحمل نفس الاسم، قال الشيخ إمام إن أحد الطلاب ذهب إلى حوش قدم وأخبر نجم بما حدث وصحبه إلى المظاهرات، ثم تبعهما الشيخ ليغنى ويغنى معه الجميع «يا عم حمزة رجعوا التلامذة للجد تانى».. وعم حمزة هو رجل صعيدى أنشأ مطعماً أمام سجن الاستئناف.. وقيل إن إستهلال الأغنية كان للطلاب الذين شاركوا فى ثورة ١٩١٩ وتم سجنهم فى «الاستئناف»، وإن عم حمزة هو نفسه جد عم حمزة الذى كتب له نجم أغنيته التى لحنها وغناها الشيخ إمام.. وحسب الكاتبة فريدة النقاش فى «السجن دمعتان ووردة» عن مذكراتها كسجينة سياسية.. فإن عم حمزة كان يتولى نيابة عن أسر المقبوض عليهم إرسال الأكل للمساجين السياسيين.. المهم أن الشيخ إمام ورفيقه نجم

ألقى القبض عليهما ليعودا إلى السجن من جديد.. وحسب صلاح عيسى فى مقال بديع ضمنه كتابه «تباريح جريح» فإن نجم وإمام لم يتوقفا عن الغناء للشعب ولم يتاجرا بمعارضتهما لعبدالناصر حين أصبح التهجم عليه يفتح مغلق الأبواب، وهو ما فعله كلاب لم يفتح أحدهم فمه فى عهد عبدالناصر بكلمة أو حتى «همسة احتجاج».. ظل إمام إذن على موقفه من الغناء للشعب طيلة عهد السادات، ولذلك ما كاد يخرج من سجنه حتى يعود إليه، واستمر الحال هكذا حتى عام ٧٩.

واستمر الحال مع الرجل فى عصر مبارك.. بل إنه سجن فى أول أيام عصر مبارك.. وهذه المرة كانت تهمته ظريفة جداً.. التهمة كانت توزيع ٥٠ زجاجة بيرة على أهل «حوش قدم» ابتهاجاً بمقتل السادات.. ظل الرجل محجوزاً لمدة أسبوعين حتى أفرج عنه.. وحسب قوله فى مذكراته لم يعرف معنى الحرية إلا فى عام ١٩٨٤ حينما رفع اسمه من قوائم الممنوعين من السفر.. لكن هل تركت السجون الشيخ إمام فعلاً طيلة السنوات العشر الأخيرة.. هذا غير صحيح على الإطلاق.. فرغم عدم سجنه جسداً فقد ظلت أغنياته ممنوعة عن الناس لا يقترب منها منتج.. وظل التليفزيون عدواً له ولتجربته.. حتى قامت أحداث يناير ولم يجد مسئولوه مفراً من إذاعة أغنيته الرائعة «يا مصر قومى وشدى الحيل» من كلمات نجيب شهاب الدين.. أما أغرب ما فعله التليفزيون بنجم فكان تلك الحلقة التى غادر فيها صناع برنامج مصر النهارده ماسبيرو، حينما أعلن المذيع أن «الجدع جدع والجبان جبان».. ليتم طرده هو وزملاؤه بعدها وعقاب المخرج عماد الغول بمنعه من إخراج أى عمل بالتليفزيون دون أن يدرى المعاقبون أو الذى أصدر أمر العقاب أن المقطع يعود للشيخ إمام عيسى وإحدى أغنياته الشهيرة.

علقة على باب ماسبيرو

علاقة الشيخ إمام بالتليفزيون قديمة.. ربما سببت له عقدة كما أراد أن يصور لنا الفاجومى فى مذكراته.. فقد ذهب الرجل لامتحان لجنة الاستماع كملحن.. وقبل أن يحل دوره سمع رئيس اللجنة حافظ عبدالوهاب يسأل أحد الممتحنين بطريقة خاطئة، فقام ليصحح له السؤال، فكان أن زغدة من بجواره: «اسكت ده رئيس اللجنة».. فقال الشيخ الضرير «وكمان رئيس اللجنة.. يبقى عليه العوض على المزيكا».. وفوجئ حافظ عبدالوهاب فسأل الشيخ «انت بتشرب حشيش؟!» فرد الشيخ «أيوه».. فقال له حافظ: «طب لما تبطل حشيش ابقى تعالى قدم فى الإذاعة» فكان رد الشيخ «لا هابطل حشيش.. ولا هاقدم فى الإذاعة..سلامو عليكم».. ولم يفعلها الرجل.. ولم يذهب لمبنى ماسبيرو إلا عندما حاول رجال المبنى استقطابه عقب ذيوع اسمه وظاهرته بين المثقفين.. إلا أنه وللمرة الثانية تعرض لعلقة ساخنة من رجال أمن المبنى.. واستطاع رجاء النقاش ومحمد عروق أن يكسرا عقدة الشيخ وجاءا به ليسجل لصوت العرب حلقات برنامج مع ألحان الشيخ إمام.. وإحدى حلقات برنامج «شريط تسجيل» للتليفزيون.. ثم كان الأمر أكبر من الجميع لقرار عبدالناصر «اعتقال الشيخ ونجم».

وكان من الطبيعى أن يكون تليفزيون السادات على عداء مع الرجل الذى انتقد الانفتاح.. وعارض كامب ديفيد.. واعترض على قدوم جيسكار دى ستان.. ونيكسون الذى تحول على ريشة عودة إلى «نيكسون بابا بتاع الووتر جيت».. كما أن طول فترة بقاء إمام فى سجون السادات لم يكن يسمح بأن تذهب له الكاميرا إلى هناك!!.. والأغرب أنه طوال فترة مبارك لم يفكر أحدهم فى الرجل.. سوى بمحاولة فردية من المخرج

الراحل المبدع كمال مسعود الذى قدم حلقات تسجيلية مدهشة عن عدد من رموز مصر باسم «وقائع مصرية» من بينها «الشيخ إمام».. وفى أكتوبر الماضى وافق عبداللطيف المناوى على تقديم فيلم تسجيلى عنه كان اقتراحاً من احد الزملاء بقناة النيل للأخبار وتقرر أن يتم تصويره ليذاع ضمن احتفالية افتتاح القناة بصورتها الجديدة فى يناير لكن ما جرى فى ميدان التحرير.. أجل تصوير الفيلم وإطلاق القناة معاً.. ولم يحضر الشيخ إمام.. لكننا وجدناه هناك فى ميدان التحرير حينما بدأ الشباب يغنون فى خيامهم التى نصبوها منذ يوم ٢٩ يناير:

مصر يا أمّه يا بهية
يا أم طرحة وجلابية
الزمن شاب وانت شابة
هوه رايح وانتى جاية»..

يعيش المثقف

كثيرون لا تعجبهم ألحان الشيخ إمام.. ويرونها مغرقة فى الكلاسيكية.. ويرى البعض أن جملته الموسيقية نافرة وحادة حتى إن محمود السعدنى -رحمه الله- كان يعتبر ما يفعله الشيخ إمام تنجيداً.. فيما كان ولا يزال آخرون - وحسب عمنا مجدى نجيب فى كتابه من «صندوق الموسيقى»- يرونه مجرد موضة.. إلا أن ناقداً مهماً مثل كمال النجمى كان يراه صاحب نوع من الغناء الشعبى المصرى.. ويضيف الشاعر الكبير

مجدى نجيب فى شهادته: «الشيخ إمام ليس من أفندية الغناء، وإنما هو من الذين أطلق عليهم اصطلاح مدرسة المشايخ فى الموسيقى والغناء».. وقد يبدو أمر شعبية إمام عيسى صحيحاً بالمعنى السليم للأغنية الشعبية لا المعنى الدرامى لها الآن باعتبارها أغنية مطرب «التوك توك».. وإجمالاً فإننى أجد صعوبة كبيرة فى الاستمتاع بموسيقى الشيخ لحدتها أحياناً.. ولرتابة إيقاعاته فى أحيان أخرى مثلما هو الحال فى أغنياته التى تعتمد التطريب منهجاً.. مثل «البحر بيضحك ليه» أو «يا بلح ابريم» - أعاد منير غناءها بلحن جديد - و بعد «السلام والمرحبا» التى يبدو فيها تأثره بسكة الشيخ على محمود واضحاً.. وكذلك الأمر فى لحن «زهر الجنايين».. لكننى أظلم الرجل كثيراً إذا نظرت إلى تجربته من هذه الزاوية فهو -وكثيرون حاولوا- لم يستطع الخروج من حصار الأغنية السياسية التى تعتمد التحريض منهجاً، ولم تتح له فرصة الغناء لأى مغنٍ خارج دوائر العمل السياسى الذى يحتاج إلى الهياج والتحريض لا إلى التنوع الموسيقى.. المهم أن إمام عيسى الرجل الذى حفظ القرآن وعمره ١١ سنة وعاش منذ ذلك الحين فى كنف جمعية شرعية، وعمل بعدها فى بطانة زكريا أحمد، كان من المنطقى أن تبدو تأثيرات مدرسة المشايخ فى أعماله.. وهو ما تلاحظه فى موسيقى سيد مكاوى مثلاً حتى العاطفية منها، لكن والأهم أن الظروف التى ساقت المثقفين مثل حجازى ورجاء النقاش ونجم وفؤاد قاعود وتاج وعشرات غيرهم ممن تغلب على انتماءاتهم أفكار اليسار المصرى فى فترة عبدالناصر والسادات أسهمت بشكل كبير فى تحديد اتجاهات الشيخ إمام الموسيقية.. مثلما حددت - دون أن يريد- انحيازه إلى الفقراء والعامة فى مواجهة الأفندية وأبناء الطبقات الرغدة الذين تعاملوا مع الشيخ إمام «كموضة» يتفرجون عليها كما تفرج البعض على عدوية ومن بعده شعبان عبدالرحيم فى أواخر عصر مبارك.. ومن ناحية أخرى حددت سلطة الإعلام الرسمية موقعه فى خندق مثقفى المعارضة.. رغم أنه الوحيد الذى انتقدهم.. وعاتبهم.. واستهزأ بشطحاتهم فى كثير من أغنياته:

«حلاويلا.. يا حلاويللا
يا خسارة يا حول الله
الثورى النورى الكلمنجى
هلاَّب الدين الشفطنجى
قاعد فى الصف الأكلنجى
بشْكَلَاتهْ وكارميللا
يتمركس بعض الأيام
يتمسلم بعض الأيام
ويصاحب كل الحكام
وبستاشر ملة.. »

عاش الشيخ إمام اليوم بيومه.. لا ينظر إلى الغد.. ولا إلى الأمس.. فالرجل الذى حكمت المقادير أن تعالجه إحدى جاراته وهو طفل رضيع من الرمد بروث البهائم ليفقد بصره.. ترك بصيرته تقوده طيلة عمره دون أن يتوقف لحظة ليسأل نفسه «إلى أين تمضى بى خطوتى القادمة؟».. «ماحسبهاش».. ولم يكن فى حاجة إلى أن يحسبها.. مات وليس له من حطام الدنيا سوى «سرير ودولاب وعود.. و ٥٠٠ أغنية».. تظل أغنية «مصر يا أمّه يا بهية» هى الأشهر منها.. ربما لأن يوسف شاهين ضمها إلى أحداث أحد أفلامه.. لكننا الآن بحاجة إلى التوقف حيال ذلك الرصيد العبقرى من موسيقى موجهة.. تسجل ٤٥ سنة من عمر مصر.. من أول حاحا وبقرته النطاحة التى حلبها الروم.. مروراً بالحكام الذين شيدوا قصورهم من مواجعنا.. من كدنا وعرق أيدينا.. وليس نهاية بسيرة العشاق

الذين تجمعوا فى سجونها من القلعة إلى أراميدان.. وحتى شهدائها الذين فقدناهم فى يناير.. يحتاج الشيخ إمام - الآن وليس فى يناير القادم - إلى من يعيد قراءته على وهج نور مصر.. مصر التى لم يغن لسواها لأنه يعتقد مع شاعره أن كل عين تعشق حليوة.. أما هى فإنها «حلوة فى كل عين».. وعلينا أن نلاحظ جيداً علاقة الجمهور بالمطرب فى أغنياته فالرجل كان حاداً وهو يضع كليهما فى جملة واحدة.. وخد عندك أغنية حاحا مثلاً.. واسأل نفسك هل يمكن أن تغنيها دون مشاركة «آخر» معك؟!

الإجابة لا.. وهو الأمر نفسه فى «شيد قصورك».. «وحلاويلا» «وجيسكار ديستان» وغيرها.. الجمهور.. الذى هو الشعب هو الشريك الأساسى.. فى أغنية الشيخ إمام ويكاد يكون المطرب الرئيسى، فيما يتراجع دور الجميع ليلعبوا دور الكورس وهذا هو المدخل الصحيح فى رأيى لمعرفة الشيخ وألحانه.. وهى العلاقة الوحيدة التى أراها بينه وبين سيد درويش - فنان الشعب- فكلاهما صنع لحناً يغنيه «الجميع».. وببساطة مدهشة.. وهذا هو سر قبول ثوار ميدان التحرير للشيخ إمام وأغنياته لتعبر عنهم ويتخذوها شعاراً لمظاهراتهم ومطالبهم.. وفى الوقت الذى جعلهم يرفضون فيه تامر حسنى ويضربونه علقة ساخنة، ليس لأنه يمثل النظام من وجهة نظرهم فهو ليس كذلك على الإطلاق، لكنه يمثل كل شريحة المطربين التى تتعامل معهم كجمهور.. كرعيا عليهم النظر.. يا دوب النظر والتصفيق بشدة.. وهذا ما لم يفهمه تامر حسنى.. فقد بكى بعد أن ضربوه، وكان أكثر ما أوجعه أنه يعتقد انه مطرب عصامى فقير صعد إلى القمة لأنه من الشعب.. لكنه لم يفهم -حتى الآن- أن الشعب لم يعد يريد من يحبهم على طريقة عيد حواش فى «صباح الخير يا مصر»!.

obeikandl.com

لماذا هجر الفاجومى السجن والغناء فى عهد مبارك؟

obeikandl.com

اعترف أحمد فؤاد نجم المعروف بالفاجومى بالسرقة ٣ مرات فى حياته.. لكنه لم يتحول لابن عروس.. وسجن فى عهد عبدالناصر الذى رفض خروجه من المعتقل «طول ما هوه عايش».. لكنه عاد وكتب أجمل قصائده فى رثائه.. ولم ينج من سجون السادات سوى أيام قليلة طوال مدة حكمه.. لكنه ظل يغنى طوال عصر السادات.. أما مبارك فلم يتعرض له على الإطلاق.. بل تحول فى عصره إلى ممثل سنيد لأحمد الفيشاوى.. ومذيع فى قناة دريم.. وكاتب صحفى فى الدستور والوفد.. لكنه لم يتوقف عن إعلان معارضته طيلة ٣٠ سنة.. فيما توقف عن الغناء السياسى تقريباً.. كيف تنظر إلى كل هذه المفارقات فى حياة ومسيرة أحمد فؤاد نجم؟!

استمعت إلى أغنيات أحمد فؤاد نجم فى سنوات مبكرة من عمرى وأحببتها وأحببت أصحابها.. سواء كانت بصوت الشيخ إمام عيسى أو فاروق الشرنوبى أو إيمان البحر درويش الذى أعاد غناء بعض أغنيات الشيخ إمام.. ومثله محمد منير الذى أعاد غناء بعضها بألحان جديدة لحسن أبوالسعود مثلاً «بلح أبريم».. ورغم محبتى لتلك الأغنيات ودعشتى لها وتعلقى وشغفى بها ظلت علاقتى بالشاعر متوترة.. فلا هو بالنسبة لى فؤاد حداد.. ولا هو صلاح جاهين.. تلك العلاقة الملتبسة سببها أحمد فؤاد نجم نفسه.. فقد

أدهشنى اعترافه بالسرقة.. اعترف مثلاً بأنه كان يسرق الفواكه من حدائق الأغنياء فى قريته عزبة أبونجم.. وخص أحدهم وهو الخواجة كارنو بحكاية طويلة فى مذكراته.. واعترف كذلك بأنه سرق القماش المدعوم أيام كان موظفاً فى السكة الحديد وبسبب هذه الواقعة تعرض للسجن لأول مرة فى حياته لمدة ٣ سنوات.. واعترف كذلك – وهذا هو الأهم عندى – بسرقة قصائد فؤاد حداد وتضمينها ديوانه الأول «صور من الحياة والسجن» والذى حصل به على جائزة رسمية من الدولة!! نجم يقول فى مذكراته إنه تعرف فى السجن على الثلاثى عبدالحكيم قاسم الروائى المدهش صاحب «أيام الإنسان السبعة».. والناقد سامى خشبة.. والكاتب حسين شعلان.. وإنهم علموه كثيراً مما كان يخفى عليه من حقائق الواقع السياسى.. ومما علموه أيضاً شعر فؤاد حداد الذى كانوا يحفظونه.. ويبرر نجم سرقته لإمام الشعراء بأنه تصور أنه يسهم فى نشرها.. ويحكى نجم نفسه أن صلاح جاهين حينما التقاه لأول مرة قال له «مش انت اللى سارق فؤاد حداد؟!».. وأضاف «ماتعملش كده تانى».. ويبدو أنه سمع نصيحة صلاح جاهين. وطريقة اعتراف نجم بسرقاته تجعلك تحبه.. مثلما تحب ابن عروس قاطع الطريق الحرامى الذى تحول إلى روبن هود بالنسبة لأمثالنا ونحن شباب فى الصعيد.. أحببنا ابن عروس وأشعاره – التى لم يسرقها – وقبلنا توبته عن سرقاته وهو قاطع طريق.. وأعجبتنا شجاعته وحروبه وعشقه للفتاة التى حولته مجذوباً.. وتخيلناه دوماً فى صورة نور الشريف الذى قام بدوره فى مسلسل حكى سيرته «مارد الجبل».. وربما بسبب نور الشريف الطويل العريض الوسيم لم أتخيل أحمد فؤاد نجم أبداً فى صورة «ابن عروس» الذى هو «مارد وفارد فى الجبل طوله.. لا حد داق عذابه ولا حد قال قوله».. وزاد من ارتباكى حيال نجم لقائى به.. فهو رجل ابن بلد.. شهم.. سليط اللسان ضد

السلطة.. لكنه خجول جداً إذا مدحته.. حيرتنى تلك الشخصية التى تركت سيرتها وسط الفقراء والمعدمين الذين دافع عنهم طيلة عمره.. وراح يرمى بتاريخه كله فى حضن رجل أعمال شهير.. وهذه الواقعة كانت سبباً فى حرب ضروس أشعلها الكاتب الكبير عادل حمودة دفعت نجم وقتها لإصدار كتاب «أنا بقى وعادل حمودة» حتى يرد عليه.. وانتهت المعركة وظلت صورة نجم مشوشة فى ذهنى.. من أى جانب تطل عليه إذن.. هل هو من استغل إمام عيسى – الشيخ الضرير – ليصنع مجده وشهرته.. ثم يبيعه ويمضى وحيداً؟.. أم أن الشيخ هو الذى أصبح ملء العيون والأبصار بقصائد نجم؟.. هل هو المناضل حتماً الذى احترته الزنازين ما يزيد على نصف عمرى.. أم أنه مجرد رجل يعيش اليوم بيومه؟!.. ولماذا غفرنا له سرقاته فيما لم يقبل ثوار التحرير أن يغفروا لهشام الجخ رغم اعترافه بأنه لم يكن يعرف أن تلك الرباعيات المتهم بسرقتها تخص عبدالستار سليم.. وأنه كان يعتقد أنها مجرد فولكلور؟!.. لا أدين نجم ولا أبرئ هشام.. لكنى فقط أحاول أن أفسر سر تلك الظاهرة المسماة بأحمد فؤاد نجم.. وأشد ما يشغلنى فيها علاقته بنظام مبارك الذى لم يسجنه إطلاقاً مثل سابقيه.. ورغم ذلك لم يتوقف نجم عن معارضته بل دفعته تلك المعارضة إلى الانضمام تحت لواء حركات معارضة مثل كفاية.. ومن بعدها حزب الوفد قبل أن يستقيل منه.. مثلما شغلتنى جداً مسألة توقف نجم طيلة عصر مبارك عن كتابه الأغنية السياسية.. وإن لم يتوقف عن كتابة القصيدة من حين إلى آخر.. وبالتأكيد من أشهر ما كتب فى ذلك الزمن قصيدة عن توريث جمال مبارك «العريس»!

حينما سألت المذيعة العربية فى قناة روتانا نجم لماذا سكت عن الغناء والمعارضة طيلة ١٨ سنة من عصر مبارك قال «ما اتكلمتش لأنى كنت بأمل فيه خير».. وأضاف: «هوه

قال إنه جاى يشيل الفساد.. وأنا باطلب منه يبقى راجل قد كلمته».. ثم أضاف معقباً على عدم تعرض النظام له وسجنه كما فعل عبدالناصر والسادات «مين قال إنى حر طليق؟.. البلد كلها بقت سجن»!!

ربما من هذه يمكن فهم لماذا سكت النظام عن نجم وغيره.. لكن لماذا توقفت أغنيات نجم السياسية رغم هذه الحرية المتاحة؟!.. هل ينضب معين الشاعر إذا ظل حراً؟!.. لقد اضطر نجم إلى تغيير بعض الكلمات فى أغنية «أهيم شوقاً».. وبالتحديد من «يا عزة يا اللى الهوا رماكى».. إلى «يا سمرا يا اللى الهوا رماكى» حتى تصبح أغنية سياسية يغنيها محمد الحلو من ألحان صلاح الشرنوبى.. فهل كان غياب إمام عيسى سبباً إضافياً لخفوت ظاهرة نجم فى الغناء السياسى وتوقفها عند حدود بعض تترات المسلسلات «أبوالعلا ٩٠- زيزينا» مثلاً.. وبعض المسرحيات «الملك هو الملك»؟!

الكاتب المصرى المقيم فى لندن أمير العمرى يقول فى كتابه «الشيخ إمام فى عصر الثورة والنظام».. إن الدولة فى عهد الرئيس حسنى مبارك بدأت سياسة الاحتواء والتطويع والإغراء والتقليص بشتى الطرق!!

ويضيف: «ولّما كانت ظاهرة نجم - إمام قد ولدت داخل بوتقة المعارض الشرس لنظام السادات سرعان ما تم تصدير الظاهرة إلى الخارج».. وعاد نجم إلى مصر فى منتصف الثمانينيات ليتم الاعتراف الرسمى به وطبع دواوينه ومذكراته وتتم استضافته فى البرامج.. ولم يقترب النظام منه عندما حولته قناة دريم إلى مذيع لبرنامج «حبايبنا» - رغم إعلان معارضته التوريث - مثلما فعلت مع هيكل بعد المحاضرة الشهيرة والتى نقلتها القناة من الجامعة الأمريكية..

ويحاول أمير العمرى أن يرجع عدم تأثير نجم فى فترة مبارك كما قبلها لعدم قدرة اليسار نفسه على التأثير.. إلا أنه يعود ويؤكد على ما خلفه نجم من أشعار وأغنيات ومواقف كبيرة باقية.. رغم انحسار ذلك الدور.. وإن لم يكن بنفس التأثير.. وإن كنت أرى أن نجم عاد بذلك التراث (مجموع ما كتبه من أغنيات أيام ناصر والسادات) ليصبح نجم شاعر الميدان فى ٢٥ يناير وبعدها حيث أعاد أحمد سعد غناء ١٠ أغنيات له من ألحان الشيخ إمام.. ورغم إعجابى بأن أحمد سعد لم يتصرف فى ألحان الشيخ إمام فإننى أستغرب أن الفاجومى وافق على تغيير التاريخ فى أغنية «تهل البشاير» من ٢٣ يناير إلى ٢٥ يناير.. فالحدث القديم باق فى ذاكرة المصريين ولا يصح الباس طاقية ذلك الحدث لما جرى فى ميدان التحرير لمجرد أن نجم لم يكتب جديداً يعبر عن الحدث الجديد خاصة أنه يراه ثورة لم تحدث فى تاريخ مصر من قبل.. ويبدو أن انشغال نجم بتقديم برنامج جديد فى قناة مودرن لم يتح له فرصة أن يستعيد روح الشاعر بداخله ليكتب عما يجرى الآن بدلاً من استعادة أغنية قديمة له..

«كل ما تهل البشاير
من يناير كل عام
يدخل النور الزنازين
يطرد الخوف والضلام
يا نسيم السجن ميّل
ع التعب وارمى السلام
زهر النوار وعشش
ف الزنازين الحمام»

لكن يبقى سؤال: هل يحتاج نجم إلى أغنيات جديدة ليصبح أحد أهم شعراء الميدان؟!.. أعتقد لا.. فلديه من الرصيد ما لم ينفد تأثيره بعد.. خاصة تلك الأغنيات التى تستمد روحها من النسيج الشعبى المصرى وفى مقدمتها «بقرة حاحا».. التى أعاد أحمد سعد اكتشافها ليقدمها فى الفيلم الذى يحمل اسم «الفاجومى» وفى اسطوانة تضم نفس الأغنيات من بعدها.. حاحا.. بإيقاعها السريع.. وجرأتها.. وشعبيتها.. وجذورها الممدودة إلى ما يجرى من محاكمات شعبية وجنائية لعدد من رموز النظام السابق فى قضايا تمس فكرة «نهب مال الفقراء».. كل ذلك يجعل من «حاحا» أغنية لموسم جديد وكأنها كُتبت هذا الصباح.. هل تذكرون الأغنية الأصلية..

«أوحة بقرة حاحا
أوحة النطاحة..
أوحة حلبت شخبين
أوحة والباقى فين
أوحة.. شربه الراعى
أوحة.. والراعى فين
أوحة حدا ابن عمه
أوحة دم ابن عمه
أوحة ما سيل دمه
أوحة.. يا دم الشوم
أوحة.. عدى الفيوم»..
إلخ..

هكذا تأثرنا بالأغنية الشعبية التى استفاد منها نجم.. فما بالك بلحن الشيخ إمام الذى سبق وغناه إيمان البحر درويش.. ومن بعده خالد شمس.. وعدد كبير من الفرق الغنائية الجديدة التى اكتسبت بهذه الألحان جمهوراً جديداً من الشباب فى حفلات ساقية الصاوى وغيرها.. فكان طبيعياً أن نجد «مصر يا امه يا بهية».. و«حاحا» من الأغنيات السائدة طيلة ١٨ يوماً فى ميدان التحرير.. نجم إذن موجود رغم توقفه عن كتابة الأغنية السياسة لسنوات طويلة.. ليس بحاحا وحدها.. فهناك أغنيات أخرى من رصيده وبخاصة تلك التى تعرض للفجوة الهائلة بين الفقراء والأغنياء فى مصر وتجد طريقها إلى الناس حتى رغم ارتباط نجم بهؤلاء الأغنياء من تجار المحمول وأصحاب القنوات الفضائية.. وفى مقدمة تلك الأغنيات «شيد قصورك».. التى يقول فيها:

«شيد قصورك ع المزارع
من كدنا وعمل ايدينا
والخمارات جنب المصانع
والسجن مطرح الجنينة
واطلق كلابك فى الشوارع
واقفل زنازينك علينا
وقل نومنا فى المضاجع
آدى احنا نمنا ما اشتهينا
واتقل علينا بالمواجع..
احنا اتوجعنا واكتفينا»..

ويشير أمير العمرى فى كتابه السابق الإشارة إليه إلى ملاحظة مهمة.. وهى أن عدداً كبيراً من المواقع الإلكترونية المنتمية للتيارات الإسلامية تبنت هذه الأغنية.. ربما

لمحاربتها «الخمر».. من ناحية.. واطلاقها صرخة فى وجه النظام الذى عارضته كثيراً من ناحية أخرى، هذا رغم عدم تبنيها – تلك الجماعات – لفكرة الغناء من الأصل ولكن للمصلحة المؤقتة – يمكنها قبول ذلك النوع من الأغنيات – ربما لأنها لا تحرض على الفاحشة رغم عدم قبول ذلك التيار بنجوم اليسار وأفكار اليساريين الذين ينتمى لهم إلا أن الانتهازية السياسية تسمح بقبول الكثير ومنه تلك الأغنيات التى عرفت طريقها لتلك المواقع التى أسهمت فى نشرها فى عز منعها رسمياً من ناحية وبعد رحيل النظام كنوع من التشفى فيه بالغناء من الناحية الأخرى.. وتبقى لنجم أغنيات أخرى كتبها أيضاً فى أزمة سابقة إلا أن منعها يجعلها اليوم لقمة شهية لتجار الاسطوانات ومن بينها أغنية لمحمد منير صورها محمود بركة وكادت تعرف طريقها للشاشة لكن النظام أوقفها فى اللحظة الأخيرة رغم أن تكلفتها تعدت نصف المليون جنيه . أغنية نجم ومنير واحدة من درر الفاجومى فى محبة الناس والبلد..

«ولو يحبسونى.. ولو يشنقونى
ولو فكروا بالعذاب يبعدونى
ح اقرب وأقرب.. مش ممكن أهرب
وتنزل دموعى على خدودى تشرب
تشرب تلاقى الرموش والخدود والمباسم
مراسم وصورتك عليهم يا مصر».

وسيبقى أن نعترف مثلما اعترف هو فى وقت سابق بكل ذنوبه وخطاياه.. يبقى أن نعترف بأننا لم نحبه بما يكفى.. ولم نحتف بأغنياته بما يليق بها.. مثلما لم نحتف به.. يبقى أن نتقبله كما هو.. بعيوبه وشطحاته.. وتحولاته.. بأغنياته وقصائده ومواقفه.. نجم كان وسيبقى ظاهرة أكبر من محاولة تفسيرها.

obeikandl.com

السطو على بليغ حمدى فى قلب الميدان

obeikandl.com

حسناً فعل عزيز الشافعى حينما بحث فى الدفاتر القديمة عن أغنية تصلح لثورة يناير فلم يجد سوى بليغ حمدى ليلطش أغنيته الأشهر عن «بحر البقر» لتصبح «بحبك يا بلادى» التى لطشها رامى جمال من عزيز هى تميمة أحداث يناير منذ بدأت وحتى الآن. حسناً فعل الرجل.. فمن سوى بليغ وجملته المبهرة الباهرة يصلح لأن يصبح عنواناً لحدث مفرح أو حزين يجرى فى مصر.. من سواه من فرسان النغم الذين جاءوا فى القرن العشرين يمكنك أن تسطو على إحدى إبداعاته فيقول لك بأريحيه.. «وخذ هذه أيضاً زيادة على اللى انت عاوزه»..

نعم هو الوحيد.. فكل جملة من أغنياته التى تعدت الألفين تصلح لأن تصبح عشر أغنيات طازة.. صباحه زى الندى المصرى فى غيطان بحرى.. زى الهوا الربانى وهو يطوح «جريد النخيل» فى قلبى.. زى الدفا النعسان فى شوارع وعطفات وحوارى بولاق الدكرور والسيدة زينب والزيتون فى شتاء المدينة.. من له غيرها.. بليغ حمدى؟!.

يقول عزيز مبرراً استيلاءه على لحن بليغ بعد أن تم افتضاح الأمر ومن اليوم الأول «استعنت بلحن الموسيقار بليغ حمدى لإضفاء روحه ولحنه المتميز فى جملة يا بلادى سعياً فى أن يكون مشاركاً فى الثورة بتلك الجملة.. «يا سلام».. ومن قال لك إنه لم يكن مشاركاً؟! ويضيف: «ونفذتها بهذا الشكل لأنها الأغنية الوحيدة التى تغنى على لسان

الشهيد». وهذه معلومة أخرى مناورة ومراوغة.. وحتى لو كان الأمر كذلك.. فهل يعنى ذلك أنها مستباحة للنحت».. كان الأجدى للملحن الشاب أن يقول إنه لم يجد لحناً لديه ولا لدى غيره يصلح لأن يمتطيه ويرفع راية النضال على طريقة مشاركته فى مئوية نادى الزمالك.. ظنها الرجل «هيصة» وواجبا ألا يتخلف عن ارتدائها.. عموماً.. حسناً فعل الرجل.. فقد اكتشف الصغار من أطفالنا أن سحراً يسيل على ألسنتهم فى هذه الجملة.. فقط هذه الجملة.. فلا يمكن أن تقارن ما بعدها بها.. وأتحدى أن يتذكر أحدهم أى شىء من هذه الأغنية سوى جملة بليغ حمدى.. ويزيد الأمر سوءاً على سوء حظ عزيز الشافعى لو أننا استمعنا إلى الأغنية الأصلية التى استعان فيها بليغ بكورال أطفال فى مشهد لا ينسى من فيلم «العمر لحظة» والقنانة ماجدة تتفقد جثث الشهداء من أطفال مدرسة بحر البقر.. والمقارنة بين الكلمات التى كتبها عزيز الشافعى والكلمات الأصلية التى كتبها إمام شعراء العامية فؤاد حداد تنهى أمر صاحبنا وتقضى عليه تماماً:

«محافظتى الشرقية.. ومدرستى بحر البقر الابتدائية
وكراستى مكتوب عليها تاريخ اليوم
مكتوب على الكراسى اسمى
سايل عليه عرقى ودمّى
دم الجراح اللى ف جسمى..
ومن شفايفى بتنادى..
يا بلادى.. يا بلادى..
أنا بحبك يا بلادى».

ألم يقشعر بدنك وأنت تقرأ هذه الكلمات.. فما بالك لو سمعتها بلحن عمنا بليغ حمدى؟!

«يا كل واحد فى الملايين
دم الولد.. طلوا وشوفوا
بس النهارده يا مصريين
كتبنا ع التختة حروفه».

والأغرب أن الأخ عزيز لم يترك أغنية أخرى لعبد الحليم حافظ هى أغنية فدائى لينحت كلماتها أيضاً وبخاصة فى المقطع الذى يقول:

«وأن متْ يا أمى ماتبكيش
راح أموت عشان بلدى تعيش»

لماذا يدوم بليغ هكذا؟! لأنه مصرى.. لماذا تستمر سرقته من بداية التسعينيات وحتى الآن وتظل أغنياته حاضرة بكل ذلك الوهج؟ لأنه مصرى.. ولماذا يفاجئنا فى كل وقت بأنه حاضر لا يغيب وأن رحيله «فى منتصف جملة موسيقية» يجعل منتصفها الآخر مفتوحاً حتى آخره.. وكل من يريد من الملحنين أن يضيف نصفها الآخر يكتشف بعد فترة أنه أضافها من «رصيد بليغ» واسألوا صلاح الشرنوبى وعصام كاريكا ووليد سعد ومحمد رحيم وثلاثة أرباع ملحنى لبنان والشام؟!

لقد ارتبط بليغ بالغناء لمصر دون الانتماء لأى حاكم أو حزب أو تنظيم سياسى.. ربما أحب أفكار عبدالناصر.. واقترب من شخص السادات الذى أمر بأن يوفروا له كل ما يريد لإنجاز حلمه فى مسرح غنائى مصرى. لكنه وفى عز جبروته وانتصاره واتساقه مع المصريين بعد نصر أكتوبر لحن له «عاش اللى قال» بعد معاناة ورفض استمر لفترة.. يذكر عمنا محمود عوض فى كتابه «من وجع القلب» أن حليم اشتكى بليغ أمامه قائلاً: «أنا عايز أقدم أغنية عن أنور السادات بمناسبة الحرب وده رأسه وألف سيف» ويرد بليغ: «يا حليم أنا تحت أمرك.. قلى هنغنى لمصر.. للجيش.. للشارع.. للناس تحت أمرك لكن نغنى لحاكم مهما علا شأنه .. أبداً».. وربما ولهذا السبب من تمنع بليغ خلت الأغنية التى كتبها محمد حمزة من إشارة صريحة لاسم السادات.. وكأنها تغنى لقائد فى الحرب.. وخلاص..

«عاش اللى قال للرجال عدى انقنال
عاش اللى قال يا مصرنا مافيش محال
عاش ليك ابنك..
عاش اللى حبك..
خلى نهارك.. أحلى نهار»..

غنى بليغ لمصر إذن.. وظل يغنى حتى آخر لحظة من عمره.. ورغم أن كمال الطويل سبقه فى ركوب فرس الغناء لثورة يوليو.. إلا أنه توقف بعدها، تقريباً ليبدأ عصر بليغ.. فى الهزيمة.. التى يراها محمود عوض زلزالاً نفسياً لجميع المصريين.. «وقعت مصر..

وأعد لها الكثيرون برقيات العزاء بل وطريقة الدفن»، وفجأة خرج بليغ حمدى والكلمات مازالت لمحمود عوض بموسيقاه وصوت شادية لتصبح «يا حبيبتى يا مصر» على لسان الملايين فى لمح البصر حتى إن الكاتب الكبير فكرى أباظة قال إنه يسمعها ألف مرة فى اليوم.. ومؤخراً عادت هذه الأغنية تحديداً لتصبح تميمة أفراح المصريين فى البطولات الوحيدة التى كنا نحققها.. بطولات كرة القدم!.. واستمرت حتى جاء يناير فأكملت معه المسيرة.. كيف لم يجد المصريون فى كل تاريخهم الغنائى ما يجمعهم فى الحزن والفرح سوى هذه الأغنية؟!.. نفس المشهد يتكرر فى أكتوبر كل عام حينما نبحث عن أغنية تليق بذلك النصر الوحيد فى تاريخنا الحديث فلا نجد سوى أغنياته «بسم الله».. و«على الربابة بغنى» و«عبرنا الهزيمة»!.. ربما كتب الكثيرون وغنوا لانتصاراتنا وهزائمنا.. لكن من يستطيع أن يقارن أغنيتى «عدى النهار» و«المسيح» اللتين كتبهما الأبنودى عقب هزيمة ٦٧.. أو فى أغنياته الدرامية المدهشة لفيلم «شىء من الخوف».. هل يستطيع أحدنا أن ينسى تلك الجملة الموسيقية المتوترة التى صاحبت فتح شادية للهويس فى مواجهة جبروت عتريس؟!.

وقد يظن الكثيرون أنه لحن كثيراً مما كان يطلق عليه بأغنيات وطنية.. لكنها المفارقة.. أنه ليس صاحب العدد الأوفر.. لكنه صاحب الجملة الأكثر تأثيراً وبقاء.. لم يتوقف وإن تباعدت أعماله السياسية.. لكنك إذا ما تذكرت أى موقف سياسى تجد بليغ موجوداً.. حتى عندما سافر مضطراً بعد قضيته الشهيرة المعروفة إعلامياً باسم قضية سميرة مليان.. ورغم اغترابه الإجبارى عن تلك الأرض التى لا يمكنه العيش بعيداً

عنها لم يجد بليغ ما يمنعه من كتابة وتلحين أربع أغنيات غناها بصوته كذلك وأرسلها لأبوحمزة ليطبعها فى نسخة محدودة باسم «رسالة من الغربة».. هذه الأغنية الرسالة كانت الأهم عند بليغ.. لأنه لم يكتف بأن يرسل هذا اللحن لتغنيه عفاف راضى فى إحدى الحفلات.. بل أصر أن تصل الرسالة بصوته وعلى نفقته اخاصة:

«رغم البعد عنك
عمرى ما هانسى انك
أمى وإنى ابنك
كلى حتة منك
أنا زهرة من ترابك
أنا واحد من شبابك
سافر شوقه م الغربة
يغنى لانتصارك
وحشتينى يا مصر..
وأنا فداكى يا مصر»!

من يستمع لهذا اللحن عليه أن يتوقف جيداً عند تلك الجملة «الصولو» التى يرددها كمان «منفرد» ليعرف أنه صوت بليغ الذى جرحته الغربة.. وحينما عاد حاول كثيراً أن يغنى لها من جديد.. وإن كانت الدنيا بحالها عقب عودته قد تغيرت وجاءته الفرصة ليشبع نهمه فى الغناء فيها من خلال نص محفوظ عبدالرحمن «بوابة الحلوانى» ولم يجد هو سوى صوت على الحجار الذى يحفظه تماماً ويعرف أنه يقدر على تصوير وجعه وكلمات سيد حجاب فى آن واحد..

«باحلم يا صاحبى وأنا
وأنا لسه باحبى.. أنا
بدنيا تانية يا صاحبى
وآجى أحقق الحلم ألقى
موج عالى.. طاح بى
ونعود سوا نطوى الحنين
بالأنين..
نعود سوا.. نطوى الحنين بالأنين»

ويعود بليغ ليتغزل فى معشوقته حلوة الحلوات التى لم تغادره لحظة وحتى إن غادرها مجبراً لسنوات خمس.. وغادرها برحمة المولى عز وجل جسداً فى عام ١٩٩٣.. ورغم مرور هذه السنوات الثمانى عشرة.. نجده حاضراً.. يغنى له فضل شاكر فيصح واحداً من أهم المطربين العرب.. يتذكر أحد المطربين الشعبيين المجهولين أغنية قديمة له اسمها «دقيت على الأبواب.. مافيش حداً» فتنتشر مثل النار فى الهشيم.. تحتاج إلى حسى ونفسى صوفى على دخلة رمضان فنلجأ للشيخ سيد النقشبندى ليغنى «مولاى إنى ببابك قد بسطت يدى» ليكتشف بعدها الجميع سحر هذه الجملة التى غناها الشيخ وأصبحت رنات موبايل فى السنوات الأخيرة ليكتشفوا من سحرها عبقرية موسيقى بليغ حمدى.. وسر بليغ ليس فى غنائه السياسى المباشر.. فكل أغنية له.. هى أغنية

obeikandl.com

سياسية لأن بليغ حاول تمصير الموسيقى.. حاول إحياء كل طقوس الغناء «المصراوى» حتى وهو يلحن لأم كلثوم.. وفهد بلان.. ووديع الصافى «انظر مثلاً لأغنيتهما «على رمش عيونها» أو ما لحنه للعراقى سعدون جابر.. والذى لحن له بليغ أربع أغنيات باسم «أريدك».. ومثلما هو الحال فى أغنيات وطنية للجزائر وغيرها من الدول العربية أو مطربيها..

عاشت جملة بليغ حمدى.. وستظل تعيش بيننا.. وأبشركم بأحدث ألحانه بصوت مطرب مصرى يعيش فى لندن اسمه مصطفى النحاس.. أما الأغنية فاسمها أم الأديان.. كتبها ولحنها بليغ من عشرين سنة.. لتناقش أحوال المسيحيين والمسلمين فى مصر.. وتؤكد بشكل قاطع:

«لا جاى منين ولا رايح فين
ولا اسمك إيه ولا دينك إيه
كل دين له مؤمنين..
عاشوا مرتاحين فى مصرنا ليه»

هذه مصر عند بليغ.. وسيظل هو فى قلبه يردد دائماً «أنا م البلد دى».

obeikandl.com

أبو صلاح..
شاعر الثورة الذى قتلته زوزو

obeikandl.com

فى كل عام.. وقبل أن يطن فى الآذان نشيد الثورة.. يجيئنى صلاح جاهين فى «الصحو».. مبتسما.. واثقا.. يرقص رقصته المعتادة وهو يغني:

«أنا اللى بالأمر المحال اغتوى
شفت القمر.. نطيت لفوق فى الهوى
طلته.. ماطلتهوش
إيه أنا يهمني.. وليه..
ما دام بالنشوة قلبى ارتوى»..

صحيح إيه اللى يهم راجل عاش حياته سبع مرات.. قرأ الدنيا وخبزها وعجنها.. وسواها سينما ومسرح ورسم وغنا وأراجوز..

.. تعب.. غير شرابينه.. اكتأب.. انتحر.. مات.. وإيه يعني.. هو فيه شاعر عاش وهيعيش زى صلاح جاهين؟!

نعم هو الشاعر الوحيد.. رغم غزارة إنتاج مئات الشعراء فى يوليو - الذى يمكنك أن تقول إنه شاعر يوليو.. شاعر الثورة.. هو الوحيد رغم أنه لم يبدأ الكتابة عنها ولها إلا بعد أربع سنوات كاملة من تحققها.. لقد سبقه الكثيرون منهم حيرم الغمراوي.. وإسماعيل الحبروك.. وحسين طنطاوى صاحب أغنية «ع الدوار» التى كانت ولا تزال تميمة أغنيات ثورة عبدالناصر ورفاقه.. وهو الوحيد الذى جعل من لسانه صحيفة متجولة.. تنشر مبادئ الثوار لسنوات وتعبر عنها وتدافع عن تصرفاتها حتى ولو كانت خاطئة.. وربما لهذا السبب وحده كان أكثرهم حزنا واكتئابا عقب هزيمة عبدالناصر ورفاقه فى يونيو ١٩٦٧.. لقد حزن المصريون جميعهم.. واكتأب العرب بأكملهم والشعراء فى مقدمة

الحزانى والثكالي.. لكن جاهين اعتبر نفسه المسئول عن الهزيمة.. وقد حكى لى النجم على الحجار أن جاهين عذب نفسه كثيرا فى تلك المرحلة.. كان مصدقا لحلم يوليو.. ولهذا خرجت أشعاره وأغنياته صادقة تماما ولم يجد الطويل صعوبة فى تلحينها مثلما لم يجد عبدالحليم حافظ صعوبة فى توصيلها للناس.. ولأنه كان مصدقا.. شعر أنه خُدع وبأنه بالتبعية خَدع الناس وجعلهم يصدقون بأنهم سيشاهدون الأوبرا على الترعة.. وأن جمال سيفوت على الصحراء تخضر.

كثيرون أدهشتهم الهزيمة ومنهم من نجا وعافر واقتنع بأنها - معركة - وأن الحرب مستمرة مثل الأبنودى وبليغ وكلاهما صاغ واحدة من أنبل أغنيات الهزيمة طمعا فى النصر بعدها والتشبث بالحلم حتى آخر نفس. وذهب سيد حجاب وآخرون لكتابة تنويهات وشعارات لصوت العرب تحضُ على المضى قدما فى سكة حرب الاستنزاف.

لقد قال لى عمنا سيد حجاب إن الطويل وحليم اختاراه لكتابة أغنية عيد الثورة عام ١٩٦٦.. بعد اعتذار صلاح جاهين لأنه لم يجد لديه وقتها ما يقوله.. وكان الاختيار بناء على ترشيح من جاهين نفسه.. لكن خلافا وقع بين الثلاثى فعادت الأغنية مرة أخرى لجاهين الذى كتب «صورة».. ويعلق عم سيد حجاب «الحمد لله أننى اعتذرت حتى تخرج لنا واحدة من أعظم وأروع إبداعات جاهين والثورة معا».

لقد فتح جاهين الباب لمعظم أبناء جيل الستينات من شعراء العامية.. وكانت علاقته بهم غاية فى النبل.. سيد حجاب قال لى إنهم كانو يثورون عليه كلما أخطأ النظام ويحملونه شططهم ورغباتهم وأحلاما أكبر وكان لا يغضب، بل إنهم بعد خناقاتهم معه.. يذهبون معه يأكلون ويشربون ويمرحون ويبدعون.. الوحيد الذى عاتبه جاهين من هذا الجيل على شيء كان أحمد فؤاد نجم.. الذى عنفه جاهين لسرقته أشعار فؤاد حداد.. هل تدرون ماذا فعل معه؟!

لقد ذهب نجم ليصافحه.. وقال له.. أنا أحمد فؤاد نجم صاحب ديوان «حكايات من السجن».. فقال له مش انت اللى سرقت فؤاد حداد.. أوعى تعمل كده تاني! هذا كل

ما فعله جاهين لأنه كان يرى فيه شاعرا حقيقيا رغم ارتكابه لفضيحة!!

جاهين الأب.. هو الذى اخترع سعاد حسني.. كما أنه كان صاحب الدوّار الذى عاش فيه كثيرون من نجوم الغناء والتمثيل فى مقدمتهم مصطفى متولى وصبرى عبدالمنعم وأحمد زكى وشريف منير الذى تبناه جاهين تماما وقت أن كان يعزف على الدرامز.. شريف منير أخبرنى أنه كان يتولى كل شئونه.. مال وتثقيف وأبوة.. رجل بهذه المواصفات من الطبيعى أن يتلقف مبادئ ثورة مثل يوليو.. ومن الطبيعى أن يكون عبدالناصر القادم من بين أبناء الطبقة الوسطى ليثور فى وجه فساد إقطاعى مقيم واحتلال مستديم.. من الطبيعى أن يراه.. وطنية.. وحرية.. وروحا للأمة العربية..

«يا ناصر.. الشعب يريدك
يا ناصر.. وإيدينا ف إيدك
نبنى سوا الأيام الجاية
الشعب يريدك يا حياته
يا موصل موكبه لغاياته
وحياة المصحف وآياته
اسمك ف قلوبنا أغنية»..

هناك من يرى أنه ساهم فى تأليه عبدالناصر وأنه شارك فى خبز عجينة استبداده.. لكن مَن مِن شعبنا الطيب فى الريف والمدينة ممن التحقوا بمدارس الثورة لأول مرة.. وزرعوا أراضيهم وهم ملاك لها غير مستأجرين.. وأعتقت رقابهم من عبودية البرنسات والباشوات، كان يرى عبدالناصر مستبدا؟! لقد تناغم جاهين مع الناس فى الشوارع ورآه كما كانوا يرونه..

«يابانى السد العالي..
والكهربا فى الريف بتلالي..
يا مخلص يا عظيم يا مثالي
تحميك القدرة الإلهية»

نعم كان عبدالناصر ولا يزال مخلصا ومثاليا فى عيون الملايين.. وإلا بماذا تفسرون رفع صوره فى كافة الاحتجاجات والمظاهرات منذ عام ٢٠٠٥ وحتى الآن.

عبدالناصر وجاهين صارا شيئا واحدا فى الموسيقى والغناء للثورة.. مثلما صار هيكل وعبدالناصر فى الإعلام.. كلاهما كان رجل الزعيم.. لكن صلاح عاتب نفسه.. فيما ظل هيكل يرى فيما حدث فى ١٩٦٧ مجرد «نكسة».. وربما لا يزال حتى الآن.. عاتب جاهين نفسه بالاكتئات.. رغم أنه غنى لمصر.. لمشاريعها.. لحربها ضد المستعمر

«فى ميعادك يتلموا ولادك
يا بلادنا وتعود أعيادك
والغايب ما يطقش بعادك
يرجع ياخدك بالأحضان»..

هل منا من يختلف معه فى ذلك..

«ياما شفتك فى البعد عظيمة
يا بلادى يا حرة.. يا كريمة
وزعيمك.. خلاكى زعيمة
فى طريق الخير والعمران»

أشد أعداء عبدالناصر وتجربته لا ينكرون أنه بالفعل جعلها زعيمة.. حركة عدم الانحياز ظلت ولفترة طويلة سندا لكل الشعوب المقهورة. وخنجرا فى يد قوى التحرر فى العالم الثالث ضد أمريكا وجبروتها.. ومنذ شهور قليلة نزفنا دما ونحن نتحسر على ضياع هيبة ووجود مصر فى أفريقيا وشعرنا بخطر عظيم ونحن نرى من يعبث بأعالى النيل ويهددنا فى نقطة المياه التى نشربها.. فى بقعة الضوء التى تنير شوارعنا ومنازلنا وحجرات العمليات فى مستشفياتنا.. شعرنا بأننا فى حاجة إلى رؤية عبدالناصر وعلاقاته بدول أفريقيا ولُمنا النظام السابق ومن يسبقه لأنه أضاع ما فعله الرجل مع قادة وأبناء تلك البلاد.. حتى إننا وبعد يناير لم نجد سوى ابنه لنذهب به على رأس وفد شعبى إلى تنزانيا وإثيوبيا لنعيذ ما ضاع فى هذه المسافة منذ غياب ناصر:

«قول ما بدالك..
احنا رجالك
ودراعك اليمين
عبدالناصر يقول.. الله أكبر
ويوم الأزهر فى وجداني
يا شعب قمنا لقهر الصعب من تاني
وعود ما عنديش
مفيش إلا النضال عندي
شقا ومعارك مريرة كتير يا اخواني»..

حتى لزمات عبدالناصر الخاصة حولها جاهين لأغنيات رفع شعاراته التى تحولت إلى طريق عمل ومنشور حرب..

«يا أهلا بالمعارك
يا بخت مين يشارك
بنارها نستبارك
ونطلع منصورين
ملايين الشعب.. تدق الكعب
تقول كلنا جاهزين
يا أهلا بالمعارك»

جاهين وجد فى الثورة حياته.. ووجوده.. وخلاصه.. مثل كثيرين كانوا هم الأغلبية وقتها.. أغلبية لم تعرف الكلام الكبير من ذلك الذى كان يردده اليساريون الذين رفضوا حل تنظيماتهم ومنها «التنظيم الشيوعى الصيني».. هكذا أطلق عليه ومنها طلاب وإخوان وغيرهم كانوا يؤمنون بأن هناك أحلاما أكبر حان وقت تحقيقها.. فيما كان يرى ناصر وبعض رجاله أن الشعب يحتاج إلى خبز وديمقراطية حياة.. لا تنظيمات وأحزاب وكذلك رأى جاهين..

«توبة ما عاد فيها مجاملة خلاص
ولا عاد م الثورة الشاملة ملاص
يا إيدينا العاملة ازرعى إخلاص
واحصدى والرب .. يعين
احصدى وانفضي
اكشفى وارفضي
خاينين وانتهازيين
هنشق طريقنا بنور مبادئنا
ولنا النصر المبين»..

لقد توحد جاهين تماما مع ناصر والناس.. ونادرا ما يمكنك أن تجد أغنية له.. يتكلم فيها بصيغة فردية أو يخاطب ذاته مثلما هو الحال بعد هزيمة يونيو.. واتجاهه لكتابة أغنيات الأفلام.. وأولها «شفيقة ومتولي» التى ذهبت به إلى التراث الشعبى ليرى فى شفيقة مصر التى تم اغتصابها.. دون أن يستطع أخوها متولى أن يأخذ بثأرها.. لقد تم تغيير سيناريو هذا الفيلم مرتين وكتب جاهين أغنيات مختلفة للفيلم الذى سبق وكتب له الأبنودى أغنيات أخرى قبل أن يصل لجاهين.. ومن بعدها خروجه على نفسه فى رباعياته الحادة والقاطعة.. وأغنياته المرحة لزوزو.. لقد حاول جاهين أن يقتل نفسه بأغنيات هازلة فوجدناه يصنع لنا بهجة من نوع آخر لم يصنعها أحد غيره.

«خلى بالك من زوزو
زوزو النوزو كونوزو..
اسمع غناها..
وافهم لغاها..
دى زوزو كلامها نعوزو»..

هل هناك أى عبث أو هزل أو جلد للذات فى هذه الكلمات.. أو في..

«الدنيا ربيع
والجو بديع
قفلى على كل المواضيع»..

لقد قفلنا على كل المواضيع.. وابتهجنا..بكينا وضحكنا حتى نعيش ونقاوم ونستمر وننتصر بعدها.. فى أعظم حروب القرن العشرين.

ضاعت الاشتراكية وانتهت من كل الدول التى تبنتها.. وتحولت روسيا بعد البروستاريكا وتحول من تحول.. ورغم ذلك بقيت مبادئها حية فى أغنيات جاهين.

«افتح على حوض الورد.. أبو تمانين مليون شجراية
الورد العربي.. ورد السهل.. وورد الصحراية..
اهو كده وافتح صفحة ما تشبع فيها الدنيا قراية
يا فاتح فى الصخر ده للجبل ويا النيل مجراية
واقفل ع الحيرة.. السيرة وهات شربات للكل
اقفل عينيك وافتحها تلاقى الشوك بقى فل
وزهور لمون صابحة فى يافا
بتضحك وتطل
تقول افتح صندوق العين
وادى الحلوة .. مراية..

والحلوة.. لم تجد أجمل من «صورة» صلاح جاهين لتستعيدها فى يناير.. تغنيها وترفع شعاراتها «حرية.. وعدالة اجتماعية»..

لكننا نحتاج إلى أن نفعل مثل جاهين حتى تكتمل ثورتنا مثلما اكتملت ثورته.. وتتحول من مجرد «غضبة فى يناير.. إلى ثورة كاملة غير منقوصة.. نحتاج أن نخاطب الطبيب مثلما خاطبه وهو يفتح أحشاءه ليغير شرايينه..

«يا مشرط الجراح أمانة عليك
وانت فى حشايا.. تبُص من حواليك
فيه نقطة سودا فى قلبى بدأت تبان
شيلها كمان.. والفضل يرجع ليك».

على الحجار..
طالع شجر الحرية

obeikandl.com

obeikandl.com

لم يكن على إبراهيم الحجار فى يوم من الأيام مجرد عابر سبيل فى تاريخ الأغنية السياسية فى مصر.. ولم تكن مجموعة أغنياته الجديدة التى صدرت بعد يناير هى البداية.. ولم تكن النهاية أيضا.. فذلك الطائر المسمى بالغناء للوطن إذا كان له عدد من الأجنحة فمن المؤكد أن الحجار هو ذلك الجناح الأهم الذى ظل يرفرف طيلة ٤٠ سنة دون تعب أو ملل أو ادعاء.. ولذلك لم يكن وجوده فى الميدان وترحيب الثائرين به وحمله على الأكتاف مجرد صدفة.. ولم تكن أغنياته القديمة التى استعادوها لحظة احتياجهم للغناء شحيحة أو مجرد رداء اتشحوا به فى برد فبراير.. فهم الجيل الذى تربى على أغنياته من أول أبوالعلا البشرى وحتى «اصحى يا ناير»..

الطريق للأغنية السياسية بالنسبة للحجار لم يكن مقصودا، لكنه سار إليه وكأنه يمشى هائما إلى قبة شيخه حتى يحصل على بركته وعهده.. فالأئمة جميعهم حاوطوه منذ لحظة انطلاقه.. منذ دفع به عبدالرحيم منصور وبليغ حمدى فى عز غضب المصريين من سياسات السادات التى بلغت أوجها فى يناير ١٩٧٧.. العام نفسه كان بداية الحجار.. وقبلها كانت امبابة التى امتلأت بضحايا السادات ممن انقلب عليهم وانقلبوا عليه بعد أن كانوا رجاله فى مواجهة اليسار.. امبابة هى البيت الذى تربى فيه على الحجار ابن المطرب الكبير عم إبراهيم الحجار الذى كان يعيش مثله مثل كل أبناء الطبقة المتوسطة فى آخر ذيل أحلام التجربة الناصرية.. فقر الأب وعزة نفسه كرجل صعيدى مقاوم بالفطرة شكلت وجدان الشاب الذى يحب أهل حارته ويحب عبدالناصر ويعيش حلمه، فهو - على حد تعبير الحجار نفسه - الذى كان السبب فى دخوله المدرسة «لولا مدارس عبدالناصر ما تعلمت أنا وأخى أحمد».. لكن الظروف الصعبة التى

عاشها على لم تدفعه لكراهية عبدالناصر.. بل بررت له كل أخطائه.. وفى كلية الفنون كان لشلة الجامعة تأثير كبير فى تشكيل وعى الحجار.. الذى أتاحت له الظروف أن يكون ابنا من أبناء مدرسة صلاح جاهين - أحد أهم شعراء عبدالناصر - رافقه الحجار لسنوات قبل أن يطلق ألبومه الشهير الرباعيات.. ثم كان أن غنى للأبنودى فى تجربته الأولى مع الدراما والتمثيل «أبو العلا لبشري»:

ما تمنعوش الصادقين من صدقهم
وما تحرموش العاشقين من عشقهم
من حقهم يقفوا ويكملوا
يقعوا ويتكعبلوا..»

وكان نداؤه الأشهر وقتها:

«لو مش حتحلم معايا
مضطر أحلم بنفسي
ولو انى فى الحلم حتي
عمرى ما هاحلم لنفسي»

واكتملت الدائرة فكانت أغنيات مسلسل «عبدالله النديم».. وكانت قيمة النديم ورمزه وفكرته عنوانا يدفع الفتى دفعا إلى سكة الناس فى مواجهة السلطة.. إلى مصر الشوارع والميادين والأحلام فى مواجهة الحاكم.

«يالولا دقة ايديكي
ما انطرق بابي..
طول عمرى عارى البدن
وانتى جلبابي
طول عمرى يا مصر يونسك صوتي

متونسة بحس مين دلوقتى فى غيابي؟»..

وكان أن أصبح الحجار هو صاحب تجربته.. اندفع بكل قوته إلى أبناء تجربة اليسار.. حتى صار مطربهم.. وربما هو أكثر المطربين فى مصر ممن تضرروا من فكرة أنه مطرب المثقفين.. لكنه أصر فأضيف إلى التجربة فؤاد حداد وسيد حجاب وعبد الرحيم منصور وأبناء جيل السبعينيات عصام عبدالله وجمال بخيت، ثم مجموعة من أبرز نجوم الكتابة فى الثمانينيات: إبراهيم عبدالفتاح وبهاء جاهين وناصر رشوان وكثيرون.. حتى من لم يكتب منهم سوى أغنية وحيدة مثل محمد عبدالقادر شاعر بورسعيد الذى قدم له من ألحان ياسر عبدالرحمن واحدة من أشهر أغنيات المقاومة فى عصر مبارك:

«يا طالع الشجرة..
هاتلى معاك بُكرة
ويكون على قدي
وتكون عينيه سمرا
العدل فى يمينه
والشمس فى جبينه
يمشى على مهلي
وان تهت يندهلي»

وفى اللحظة التى تاهت فيها مصر.. و«اتلخبط كيانها» كان الحجار حاضرا.. مع ياسر عبدالرحمن وسيد حجاب:

«يا مصرى ليه دنياك لخابيط
والعنكبوت عشش ع الحيط
وليه بترشى وتتساهل
وتضيع حقوقك بالساهل

يا حويط ويحسبك الجاهل
ساهى وغبى وأهبل وعبيط».

كان المصريون قد تغربوا منذ بداية التسعينيات.. هاجر منهم من هاجر.. واكتأب منهم من اكتأب.. وحوصر منهم من حوصر فى مثلث وسط البلد.. يكتبون قصائدهم ليسمعوها فى حجراتهم المغلقة.. ويتناقلوها فى ندواتهم التى لا يحضرها أحد.. واتخذ المصريون الذين شعروا بأن السلطة والفنانين يتجاهلونهم موقفا مناقضا.. وضعوا لأنفسهم أغنياتهم الخاصة بعيدا عن القاهرة ونسها ومثقفيها.. وحكومتها.. فكان أن استشعر الحجار والشرنوبى وجمال بخيت الأزمة.. فغنى الحجار:

«ما تغربناش وتقولى قدر
ما تتوهيناش فى موانى سفر
ما تضيعناش فى وداع وفراق
هتجيبى منين زينا عشاق
فى قلوبنا حصاد..
فى عينينا مطر»..

وبدأت مواجهة السلطة بشكل مباشر وحاد.. سخر الحجار وبخيت من الأحزاب ومن المثقفين ومن رجال الأعمال وكان الهدف واضحا..

«مرمر زماني.. زماني مرمرش
حاسب يا سيدى متتأمرش
زعلان يا باشا.. زعلان ليه
عشان غلطنا وقلنا يا بيه
طربوش جنابك يا ختى عليه
لما بسرعة رجعتله مرش

باغنى لاجل الناس.. الناس
فى امبابة ولا ف أبو العباس
فى كل حارة ايدين تنباس
بتبيع ثمار.. ولا تستثمرش»

استخدم الحجار كل إمكاناته المالية والصوتية وكل أصدقائه وتجاربه ليصنع تجربته الخاصة جدا، وأصبح من الطبيعى جدا أن كل من يكتب أغنية سياسية فى مصر يذهب بها للحجار.. الذى لم يكن طيلة تلك الفترة يملك منتجا.. فجميعهم كانوا يبحثون عن الربح.. وهذه الأغنيات لا تربح مثلما تربح أغنيات هز الوسط.. أو تلك التى أطلقها شعراء النحيب من أول «هاودعك.. آخر وداع».. رحتى «ما بلاش نتكلم فى الماضي».. وغيرهما، ولم يصمد بجوار الحجار سوى رفيق رحلته محمد منير.. كلاهما حفر نهره الخاص ومضى يعافر فى تربة صخرية قاسية ليزرع على ضفتى حنجرته معنى العناد.. والحرية.

ولأن المطرب والمثقف الواعى يعرف أن فلسطين ليست مجرد بلد عربى وأن الكيان الصهيونى ليس مجرد مستعمر.. كانت مواجهته جنبا إلى جنب مع مواجهة السلطان فى مصر.. فغنى محمد منير للقدس ولسناء محيدلي.. وغنى الحجار على لسان الفلسطينى نفسه من ألحان فاروق الشرنوبى وكلمات جمال بخيت:

«أنا شاعر.. لكن قدرى أغنى بارود
يا عشاق البراح امتى يكون لى حدود
سلاحى قبضة معتلة
وحتى النبضة محتلة
لكن روحى ما تتخلي
عن الجرح اللى يبقيني.. فلسطيني»..

واستمر الهم العربى ملازما للهم المصرى الخاص فى تجربة الحجار.. يقول كلمته ويمضي..

«البحر بيقول..
وبحر الله ما يكدبشي
يا بحر قول
كلمة الحق الصريح.. وامشي»..

وكلمة الحق الصريح كان لابد وأن تكون فى المواجهة مباشرة وبلغة حادة وبلحن ساخن لا يعرف الهزر ولا الميوعة..

«لم الشمل.. بلاش تفكيكا
ياللى بتلعب بالبوليتيكا..
عايز تاكل.. كُل من قمحك
عايز تعزف اعزف سيكا..
أرضك واحدة..
وربك واحد..
لا تروح روسيا
ولا أمريكا»..

فهم الحجار ورفاقه الفولة.. الحل ليس فى يد أمريكا كما يقول السادات وسار على دربه مبارك.. ولا كما يقول الشيوعيون وفصائل من قوى اليسار عن الاشتراكية والشيوعية التى سقطت فى معظم بلدان العالم لتى اتخذتها وتبنت سياساتها الاقتصادية.. الحل فى أرضنا.. وقمحنا.. وخبزنا الذى نضعه بأيدينا.. الحل فى محمد على وعبدالناصر وشيخ العرب همام كما يراه الأبنودى:

«واقف ف وش الرياح
ماوقفش تكتيفك
غاوى تخلى الزمان
يمشى على كيفك»..

هكذا أرادها محمد علي.. وعبدالناصر.. وهمام.. لكن من سيسمح لهم بذلك؟.. المستعمرون جاهزون.. وعشاق الحرية مستمرون فى الإنجاب.. ثائر ينجب ثائرا.. المهم أن يكون هناك من يعي.. ومن يفهم.. ومن يحرض.. والحجار واحد ممن فهموا.. وحرضوا حتى آخر نفس مثله مثل عم بطاطا:

«غصب عنه يقف.. يتكتف!
لكنه بكيفه أيضا يفك حباله»..

فهم الحجار أهله وناسه الذين انحاز لهم منذ البداية. ودفع ثمن المطالبة بالحرية ولم يتعب.. حاصرته الضرائب لسنوات عن أعمال لم يقم بها لكنه لم يصرخ.. جاءوا به ليغنى فى احتفالاتهم الرسمية لكنه لم يغن سوى للجندى المصري:

«النسر المصرى شق السما»

غنى للمصري.. الرجل.. الفرد.. لم يغن للحاكم.. بل واجهه وطلب منه أن يفهم..

«افهم بقى رب يخليكا»

لكن الحاكم لم يفهم سوى أنه يسوس الناس الذين هم كالعبيد..

«قالوا لفرعون يا ظالم
مين فرعنك.. قال عبيدي
حين نخوا تحت المظالم
وانساقوا للمرعى بيدي»..

انساقوا للمرعى لسنوات فعلا.. وتحايلوا على المعايش كما تحايل عم بطاطا.. لكنهم فجأة.. اندفعوا وانفجروا.. وأظنهم سيستمرون فى الانفجار.. وسيظل الحجار يغنى لهم قبل وأثناء وبعد الانفجار فهو ليس مجرد مطرب عابر سبيل.. لكنه واحد منهم يحبهم ويحبها..

«يا ضحكة حزينة.. يا عاقلة ورزينة..
باحبك.. باحبك.. يابنت الذين»..

«بنت الذين» هى التى دفعت الحجار أن ينزل إلى ميدان التحرير بمجرد عودته من رحلة علاج فى إسبانيا.. يعانى الحجار من ألم دائم فى الظهر ويحتاج لجراحة منذ فترة.. لكنه يؤجلها من حين إلى آخر.. وتصادف أنه كان فى سفر لإجرائها منذ يوم ٢٨ يناير.. لكنه قطع رحلة علاجه وعاد ليوقف طبع ألبومه المعتاد.. وبعد أن كان مقررا أن يصدر عن صوت القاهرة فى ٢٥ يناير.. وعلى عجل استبدله بعشر أغنيات أسماها «اصحى يا ناير» على اسم تلك الأغنية التى كتبها عثمان اسماعيل من وحى أحداث التحرير، وضمت التجربة خمس أغنيات.. كان قد غناها الحجار فى السنوات الأخيرة.. ومنها «هنا القاهرة» التى ظلت ممنوعة لسنوات طويلة.. ومنها «ابتسمى يا مصر من تاني» و«الشهيد» وكلتاهما من كلمات الأبنودى وألحان أمير عبدالمجيد وكان الحجار يغنيهما ضمن مجموعة أغنيات سياسية كبيرة فى الاحتفاليات الخاصة.. لجمهور ساقية الصاوى وغيرها.. وكذلك «حرية» التى غناها من كلمات بهاء جاهين منذ سنوات.. وأضاف الحجار ٥ أغنيات لناصر رشوان وإبراهيم عبدالفتاح وألحان حمدى رؤوف وأحمد الحجار.. لتكون هذه التجربة أول عمل غنائى كامل يصدر بعد ٢٥ يناير.. لكن ما لا يعرفه الكثيرون أن الحجار الذى تعود أن يضم كل ألبوم من ألبوماته العشرين السابقة عملا سياسيا.. سيظل يغنى للحرية.. ولمصر.. وناسها وتستمر أعماله.. وتستمر حجرته فى الغناء..

«واتبسمى يا مصر..
واتبسمى يا مصر.. من تاني»!

obeikandl.com

لماذا ترك شاعر الثورة الإخوان المسلمين وانضم لكفاية؟ ! !

سيد حجاب.. صياد الأمل والحور

obeikandl.com

هو شاعر لا تجد أية صعوبة فى البحث عنه.. فى البحر ستجده.. فى البر ستجده.. فى الميدان هو صاحب خيمة وعمود..

فى عز سطوة النظام.. أى نظام ستجده على اليسار.. فى عز انهيار النظام ستجده بالقرب من الحافة يبحث عن لؤلؤة فى المحيط بقلبها جنية الأمل.. الذى سيعبر بنا فى مواجهة جهل أبو جهل.. وسيف المعز وذهبه.

طول عمره كده مغنواتى للشعب.. لا يتاجر به بل يراهن على أنه الأوعى.. والأبقى.. بسببه حرمه عبدالحليم حافظ من الغناء على حنجرته.. وبسببه اعتقله عبدالناصر الذى كان ولا يزال يراه «حلم أمة» خدعها حتى فى لحظة وفاته وتركها قبل أن يكتمل الحلم..

طوال عصر مبارك وهو يغنى للحرية.. يفتح زرار قميصه ويغنى للبلاد الحبيبة.. يكرهها، ويلعنها.. لكنها القاهرة.. بنت الذين التى لا يحب من حور العين سواها.. مش هوه برضه اللى قال:

«مين اللى قال..
الدنيا دى وسية..
فيها عبيد مناكيد وفيها السيد
سوّانا رب الناس سواسية
لا تزيد أو تخس.. إيد..»

أو ليس هو القائل أيضا.. على لسان أنغام فى مقدمة مسلسل العائلة..

«شايله الأمل طفل فى حجرى
ومسيره يوم يحبى ويجرى
عمرك يا ضلمة ما تستجرى
تسدى باب.. الناس فتحوه..»

هو الأمل الذى شاله سيد حجاب فى حجره قافزا به من بلد.. إلى بلد.. ومن تيار إلى تيار.. من أشبال الإخوان المسلمين فى المطرية .. وحتى التنظيم الشيوعى الصينى أيام

عبد الناصر.. وحتى حركة كفاية أيام مبارك.. هو نفس الأمل.. وهى ذاتها مصر.. وهم ذاتهم الناس الذين لا يمل الغناء لهم..من أول لحظة..

و«عشان بلدنا يا وله
وجمال بلدنا.. يا وله
كله يهون..»

هكذا أعلنها فى بداية الستينيات على لسان ماهر العطار.. وكررها على لسان أنغام فى بداية التسعينيات

«لا أبو جهل جهله يخوفنا
ولا شيء ح يقدر يحرفنا
ما احناش ضعاف قللات حيلة»

هكذا كان ولا يزال يرى الناس.. أقوياء يملكون من الحيل فى مواجهة السلطة والزمن ما هو أكثر من الجبروت.. الناس هم الوسيلة الوحيدة للنجاة من الهلاك:

«دنياك سكك..
حافظ على مسلكك
وامسك فى نفسك
لا العلل تمسكك
وتقع فى خية تملكك
تهلكك..
أهلك.. يا تهلك..
ده انت بالناس.. تكون»!!

يؤمن سيد حجاب بالثورة حتى النهاية.. فهو ابن ثورة بالفطرة والدم والميلاد .. قامت ثورة يوليو وعمره ١٢ سنة.. أول قصيدة فى حياته كتبها سنة ٥١ عن الشهيد نبيل منصور الذى سقط فى إحدى معارك الكفاح المسلح فى بورسعيد.. كان الإخوان المسلمون وبالتحديد أشبالهم هم أول من احتواه.. لكنهم اعترضوا على منشور يدعو للجلاء..

فتركهم وذهب إلى حزب مصر الاشتراكى الذى أسسه أحمد حسين ـ والد المناضل الجميل مجدى أحمد حسين ـ تلك الفترة جعلت حجاب ميالا إلى فكرة الاشتراكية الإسلامية التى تدعو إلى التراحم والإحساس بالآخر.. ثم أسس سعيد رمضان منظمة الشباب، حيث كان يتم تدريب تلاميذ المدارس على حمل السلاح ـ وحسب سيد حجاب ـ هو تنظيم شبه عسكرى فى إطار الثورة .. ثم حدث الخلاف بين الثورة والإخوان المسلمين.. فانحاز جيل حجاب للثورة حيث كانوا يرونها «تحقيقا لحلم الآباء»..

لكن الحلم داخل أحضان الناصرية تبخر مع العدوان الثلاثى.. يقول عم سيد «ماكان يردده الإعلام كنا نرى غيره على الأرض فى بورسعيد.. مثلا كان يقول: «مازال القتال يدور من شارع إلى شارع».. فيما كنا نرى الإنجليز مستقرين فعلا ولا معارك هناك».. بدأ الشك فى الناصرية وظل الإيمان بوطنية عبدالناصر حتى غادر حجاب جامعة الإسكندرية إلى جامعة القاهرة عام ٥٩ .. وبدأ التعرف على الفكر الماركسى لينضم لأحد تنظيمات الحركة الشيوعية السرية.. يقول عم سيد:

«كنا تنظيما يرى عبد الناصر زعيما وطنيا لكن ما يبنيه فى مصر ليس اشتراكية وإنما رأسمالية الدولة.. وكنا نرى فى الوحدة مع سوريا وحدة أنظمة على حساب الشعوب.. وأن الديمقراطية هى الحل»..

فى ذلك الوقت كتب سيد حجاب لمحمد فوزى إحدى أغنيات مرحلة التنمية.. وهى أغنية «يا طير يا طاير.. طير على بلدى»..

لحنها محمد فوزى لتغنيها المجموعة.. بعدها بقليل كتب سيد حجاب «يا ما زقزق القمرى على ورق اللمون» ولحنها إبراهيم رجب ولكنها لم تذع سوى فى عام ٦٦ .. حيث كان حجاب وقتها فى معتقل طره.. كان إبراهيم رجب نفسه قد لحن قبلها عام ١٩٦٣ م لحجاب عددا من الصور الغنائية باسم «حبات عرق» وغنتها عائشة حسن وعباس البليدى ومحمد رشدى.. وكتب سيد حجاب أغنية عن الشعب عام ٦٤ وقرر حليم غناءها بعدما اعتذر صلاح جاهين عن الكتابة فى ذلك العام ورشح لهم حجاب.. الذى التقى حليم وكمال الطويل فى صوت الفن.. واتفقوا على محاور الأغنية التى

تتحدث عن الناس واللى عايزينه من الثورة.. لكن حليم «قلق» فغضب حجاب واعتذر فذهبوا للأبنودى فرفض أن يكتب بدلا عن حجاب وعادوا لصلاح جاهين الذى كتب أغنية صورة.. يقول عم سيد: «كنت عيل عندى ٢٤ سنة.. وكانت حماقة شاب مش عايز يتنازل عن كلمة كتبها».. بس الحمد لله إنى ما كتبتش علشان تطلع واحدة من أجمل أغانى الثورة على الإطلاق.. وهى تحفة جاهين والطويل «صورة».

بعدها تم اعتقال سيد حجاب الذى لم يكتب غناء طول فترة اعتقاله وخرج قبل النكسة بقليل ليكتب للإذاعة شعارات تؤديها سميحة أيوب وأمينة رزق ومحمد الدفراوى وقوفا إلى جانب حلمه وحلم جيله الذى انكسر بعدها بقليل فى يونيو.. وبعد النكسة أسس مع مجموعة من رموز الثقافة المصرية جاليرى ٦٨ ليسافر بعدها إلى سويسرا وفرنسا حتى عام ٧٢ .. وبعد عودته كانت مصر فى أعقاب ثورة الشباب وانخرط حجاب فيها وحاول الاستفادة مما تعلمه فى أوروبا لتقديم مسرح حديث، وحاول تأسيس فرقة كان من أفرادها شعبان حسين وسعاد نصر وأحمد راتب.. وكانوا يتدربون فى مسرح السامر.. ثم خرجوا ليشاركوا فى مظاهرات الكعكة الحجرية ليقبض على عدد من أفراد الفرقة التى لم تقم لها قائمة بعد ذلك..

صورة مصر فى عهد عبد الناصر كتبها سيد حجاب فى كتاب صدر فى أوروبا بالمشاركة مع كاتبة اسمها «آن هينو» وإن حمل اسم مازن أبو غزالة وليس سيد حجاب وهو الاسم الكودى له وقد استعاره من اسم رفيق فلسطينى حمل هو الآخر اسم سيد حجاب.. وحينما استشهد فى فلسطين فى إحدى العمليات نشر نعيه «وفاة سيد حجاب» فجاء الأهل والرفاق لأخذ العزاء فى حجاب الذى كان على قيد الحياة.. المهم أن صورة عبدالناصر تلك ظلت كما هى عند سيد حجاب الذى يحكى لى كيف استقبلت أوروبا ـ حيث كان يعيش مع زوجته السويسرية ـ خبر وفاة الزعيم.. «لقد اندهشوا من مشهد خروج الجموع فى جنازة من كانوا يسمونه الديكتاتور كأنه تكذيب شعبى للرأى الغربى فى عبدالناصر الذى رحل وهو شجرة ضخمة لم تكن تسمح بنمو الأعشاب تحتها..

لكنه سقط.. وجاء السادات الذى كان جيل حجاب يعرفه جيدا.. لكنهم شعروا بأن

ثورة مضادة بدأت مسيرة مخالفة للناصرية.. يضيف:

«قبيل أكتوبر كان كل المثقفين وأنا منهم قد أصبحوا ضد السادات.. لكن معركة العبور جعلت الجميع يعاودون الاصطفاف إلى جانبه»..

وعاد سيد حجاب للغناء بأغنية «الباقى هو الشعب» لعفاف راضى.. وأذيعت عقب حدوث الثغرة فهمس أحدهم فى أذن رئيس الإذاعة بأن الجيش زعلان فتم منعها.. فذهب حجاب وكمال الطويل لرئيس الإذاعة وعادت الأغنية لتذاع من جديد وليهمس نفس الواشى فى أذن رئيس الإذاعة من جديد بأن الأزهر زعلان من الأغنية ـ لأن الباقى هو الله ـ فتم منعها من جديد ولم تذع من يومها!!

بعد حرب أكتوبر أقامت وزارة الثقافة احتفالا بالنصر كتبه حجاب وكتب الأبنودى احتفال وزارة الإعلام.. ومن بعدها اختفى سيد حجاب تماما.

يقول: «واضح إنى ما بقتش على الهوى»!! ولم يتوقف حجاب عن الغناء غير الرسمى فغنت له عفاف راضى ومحرم فؤاد من ألحان محمد الموجى أغانى مسرحية «دنيا البيانولا» وقدم له محمد نوح من ألحانه أغانى مسرحيته «كلام فارغ جدا» ثم أغنيات عدد من المسرحيات السياسية المهمة منها: حدث فى أكتوبر.. ونرجس.. وأبو على..

وأخيرا روض الفرج التى اغتيل السادات أثناء عرضها.. وكان فيها أغنية تقول:

«رصاصة عرفت طريقها
وداوت قلوبنا بنارها»

فاعتبرها البعض فرحا بمقتل السادات على يد الإسلامبولى ثم بدأ حجاب عصر مبارك بتأسيس نوع جديد من الغناء هو الغناء الدرامى فى السينما والتليفزيون فى التوقيت نفسه الذى بدأت فيه تجربته مع محمد منير وهانى شنوده.. وعمار الشريعى وفرقة الأصدقاء التى غنت له قول ياباسط.. قال الحكيم.. ومع الأيام..

والأيام.. أيام طه حسين ربما كانت البداية فى التعرض للظلم الاجتماعى الذى يتعرض له الإنسان المصرى.. ومنها إلى قال البحر.. والبحر الذى فتن عم سيد حجاب فاختار أن يعود إليه بعد سنوات من خلال شرفة شقته الصغيرة التى تطل على فنار قايتباى.. عاد

حجاب ليكتب عن الصيادين الذين هم أهله كما هو الحال فى «أولاد الليل» التى غناها محمد الحلو.. أو لأبناء الصعيد كما هو الحال فى «الليل وآخره».. أو «حدائق الشيطان»: من فاطمة البورسعيدية التى صرخت فى وجه أخيها.. إلى مصباح فى «العائلة» والصراخ فى وجه الجهل الذى يرفع شعارات الدين.. مع «عصفور النار» بصوت فردوس عبدالحميد.. إلى «ليالى الحلمية» حيث يصرخ داعيا للإمساك بالزمن الذى يفر من أيدينا:

«ما تسرسبيش ياسنيننا
من بين إيدينا
وما تنتهيش دا احنا
يا دوب ابتدينا..
واللى له أول
بكره هيبان له آخر
وبكره تفرج
مهما ضاقت علينا»

يصرخ ليحافظ على براءة الإنسان المصرى.. فى مواجهة انفلات سمعى وبصرى عقلى وسياسى.. وهو الأمر الذى دعاه فى عام ٢٠٠٥ إلى الانضمام إلى مؤسسى حركة كفاية.. فهو ليس من قبيلة المثقفين التى تتعالى على ممارسة دور سياسى على الأرض ابتغاء لحسابات شخصية ليس أقلها الإبعاد والتضييق فى الرزق.. ولم يتنازل حجاب فكتب على لسان «هيمه» ذلك الشاب المصرى الذى أعيته الحيل ليعيش يصرخ من جديد.. يصرخ وهو يحبها.. وهو يحب تلك المدينة التى شيبته..

«باصرخ واعفر جبينى
ف ترابك..
وأقف عند بابك..
يا زينة جنينة حياتنا اللعينة
بحبك.. بحبك.. يا بنت اللذين».

obeikandl.com

فى وداع فايدة كامل..
مطربة الثورة.. والفلول!!

obeikandl.com

الفن والسياسة قطاران كل منهما يسير فى طريق عكس اتجاه الآخر.. لكنهما وللعجب كثيرا ما يلتقيان.. يمشيان بتؤدة كل منهما يغازل الآخر حتى تظنهما قطارا واحدا.. وكثيرا أيضا ما يتصادمان وتجرى الحوادث وتسيل الدماء وقد تضيع جثث الركاب دون أن نمنحها فرصة صلاة الجنازة. هكذا يرى أهل الفن والسياسة بعضهم.. فإذا ما تصاهروا فلابد أن وراء المصاهرة مصلحة ما.. تخرج الفنان من زمرة الفنانين وتلقى بالسياسى من عليائه إلى ملاهى الفنانين وبيمتهم ومساخرهم كذلك.

هكذا يقرأ التاريخ من يريد أن يتعامل مع الفنان أو السياسى باعتباره آلة جامدة.. لون لا يقبل القسمة على اثنين.. ولهذا خرجت قوائم المجد وقوائم العار تضع هذا فى باليتة «الأسود الزاعق».. وذاك فى نصاعة الأبيض الطيب.. وكأنه لا وجود للرمادى فى عالمنا.. مع أن أغلب الأزمنة وأغلب الحقائق لا وجود لها إلا فى كتاب «الرمادي».

ولأننى ومنذ زمن طويل أصابتنى نوبة عقل.. لم أستطع التخلص منها حتى الآن.. قررت من حينها ألا أنظر لأى شخص سياسيا كان.. أو فنانا باعتباره واحدا لا يقبل القسمة أو التلون أو القراءة من اتجاهات متعددة.. وبهذا الفهم لا أدين فايدة كامل التى رحلت عنا منذ أيام ولا أقبلها «بيضاء من غير سوء».. لا أراها مطربة السلطة عبر كل العصور التى عاشتها - بالمعنى الدنيء للوصف - ولا أراها زعيمة للأغنية الوطنية لا يأتيها الباطل من حنجرتها.. أراها - مثل كل الفنانين والسياسيين - وجها وصوتا يجوز قراءتهما بلغات متقاطعة ومتنافرة ومتناغمة أيضا.

فى مثل هذه الأحوال.. أحوال الوداع.. لا نتذكر لموتانا سوى محاسنهم.. وفى غفلة الحزن هذه «نحدف التاريخ من سابع بلكونة».. وربما ندفنه مع ما نريد أن ننسي.. لكنه

- وكالعادة - ابن كلب ما تقدرش تهرب منه حتى ولو انت عايز .. ولأنه قريب وحاضر وفاعل. ولأن عملية الاستقطاب الفنى والسياسى تجرى على أشدها هذه الأيام ما بين فلول وثوريين.. فيمكننى أن أقولها وبكل بساطة.. إن فايدة كامل هى مطربة الثورة.. ومطربة الفلول أيضا!.. وعندى ألف دليل.

عندما دكت إسرائيل إذاعة مصر بسبب فايدة!

فى فترة عبدالناصر التقى كل شيء تحت عباءة الرجل الذى رفع شعار القومية العربية.. وتحت جناحيه كتب الشعراء فى مواجهة المحتل.. هل هناك شاعر أو ملحن أو مطرب يجرؤ أن يغنى للاحتلال؟.. هذا ما يرفضه العقل والطبيعة أيضا.. ولأن الجميع سواء من سبق أن غنوا للملك.. أو من غنوا للمحافظ أو للعمدة.. أو حتى لغفير الدرك.. ومن غنى للناس باختلاف مشاربهم.. لأن الجميع التقى فى حنجرة عبدالناصر التى قررت مواجهة ثلاث قوى استعمارية بدون سلاح سوى الحنجرة..

كان من المنطقى أن تكون فايدة كامل صاحبة الصوت النحاسى الهادر واحدة من جموع من غنوا فى مواجهة العدوان.

كان العدو يرسل طائراته تدك البيوت.. والمستشفيات.. والمساجد.. وكان المصريون يتسلحون فى شوارع بورسعيد بإيمانهم.. وغطيان حلل مطابخهم.. وصوت فايدة كامل.

«دع سمائي.. فـ سمائى محرقة..
دع قناتي.. فقناتى مغرقة»..

ورغم أن العدوان عاد محسورا بإرادة شعب وحنجرة زعيم يؤمن بشعبه وقدرته.. ومثلما كان عبدالناصر يعرف قيمة الفن.. والغناء بالأخص وقدرته على تجييش الناس.. فإن إسرائيل كانت تعرف ذلك أيضا.. فما كان من قائد جيوش الاحتلال فى الشرق الأوسط إلا أن أعلن فى إذاعة الشرق الأدنى أنه يدعو لإرسال ٢١ طائرة لإسكات صوت فايدة كامل فى إذاعة مصر.. لتلتقط عناصره الرسالة وتغير على مقر المحطة

المصرية فى أبو زعبل، ليتوقف الإرسال فعلا ويستعير المصريون إذاعة دمشق ليواصلوا الإرسال من خلالها وبث أغنية فايدة كامل التى أحرقت قلوب رجال إسرائيل..

وتسكت مصر كلها فى يونيو ٦٧.. وينجرح صوت عبدالناصر وينكسر.. لكن الحناجر التى خرجت بالملايين تطالبه بعدم التنحي.. هى نفسها التى ألهمت مئات الحناجر لصنع تجربة غنائية فريدة شارك فيها الجميع، جميعهم استنزفوا قلوبهم وحناجرهم لصنع مئات الأغنيات التى لا غنى لمن يقرأ كتب الثورة الآن عن المرور بجانبها والتزود من بنزينها وبارودها وخبزها أيضا.

وبين هؤلاء كانت فايدة كامل أيضا.. لم تكن قد أصبحت زعيمة بعد.. لكنها «بنت بلد» درست الحقوق - كان بليغ حمدى زميلا لها - وأكملت بدراسة الغناء والتمثيل، حيث كانت أسرتها تتميز بحالة حضور فنى ملحوظ.. فهى شقيقة الملحن عبدالمنعم كامل ومطربة الأوبرا عايدة كامل.. تربت فى أحياء مصر القديمة وعاشت عمرها كله هناك.. هذه السمات جعلتها بدون أى ترتيب سياسى تنحاز لقضية التحرير التى اعتبرها عبدالناصر قضية عمره.

وفى فترة الاستنزاف هذه.. خرج الغناء الثورى المقاوم من كل مكان فى مصر.. ومن السويس تحديدا خرجت فرقة ولاد الأرض.. التى كان اسمها فى البداية «فرقة البطانية» - لأن أفرادها من عناصر المقاومة الشعبية والفدائية فى السويس كانوا يجلسون على البطاطين ويغنون باستخدام أدوات بدائية: الملاعق - أكواب الشاى - الصواني.. حتى كانت عملية تكوين مجموعة من فرق المقاومة الغنائية بطول القنال وأبرزها حتما أولاد الأرض التى كتب ولحن لها الرائع النحيل والنبيل الكابتن غزالى، ومن أشهر أغنياته تلك الكلمات المكتوبة على جدران المنازل المهدمة فى السويس حتى الآن: أغنية «فات الكتير يا بلدنا» التى وصل صداها من القنال حتى مبنى الشريفين بوسط القاهرة لتغنى فايدة كامل نفس الأغنية وتصبح واحدة من علامات أغنيات حرب الاستنزاف:

«فات الكتير يا بلدنا
ما بقاش إلا القليل
واحنا ولادك يا مصر
وعينيك السهرانين
ونصرك أصبح نشيدنا
واللى يعادينا مين..
القوة يا شبابنا..
الهمة يا جنودنا
نشق الليل بسلاحنا..
نجيب فجرنا بكفاحنا
ونجيب النصر.. هدية لمصر
نكتب عليه أساميناء.. إلخ

وقبل أن يجىء النصر.. رحل عبدالناصر فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠.. وجاء السادات الذى قرر فى أغسطس التالى لوفاة ناصر أن يغير اسم مجلس الأمة ليصبح مجلس الشعب.. وجاءت فايدة كامل لتصبح واحدة من بين ٩ نائبات مثلن المرأة المصرية فى هذا المجلس ولتظل بعدها ولمدة ٣٤ عاما كاملة نائبة عن دائرة الحليفة.. ولتشهد هذه الرحلة التى امتدت واحدة من أشهر المفارقات.. ففايدة كامل هى صاحبة الاقتراح الشهير بتعديل المادة ٧٧ لتصبح مدة الرئيس السادات أبدية.. وعرف ذلك التعديل وقتها باسم تعديل الهوانم.. حدث ذلك فى أواخر أيام السادات لذى غنت له فايدة فى أعقاب كامب ديفيد من ألحان عبدالوهاب الأغنية الشهيرة: «يحبيبنا يا سادات»..

obeikandl.com

وهى واحدة من أغنيات ثلاث جاء اسم الرئيس السادات فيها صريحا وواضحا.. حتى إن الأغنية الشهيرة التى رددها له عبدالحليم عقب نصر أكتوبر «عاش اللى قال» لم تكن تحمل ذلك النداء المباشر.. لكن سيد مكاوى وعبدالوهاب وحدهما قررا الغناء له بالاسم عقب مهزلة كامب ديفيد.. وكان من الطبيعى أن تنحاز فايدة للسادات ليس بنفس الطريقة التى انحازت بها لعبدالناصر ولكن لأنها كانت وخلال تسع سنوات قد اقتربت من قصر الحاكم كثيرا.. صارت صديقة للسيدة الأولى وزوجة لوزير الداخلية - النبوى إسماعيل - ونائبة فى برلمان الرئيس.. لقد وقفت فايدة وأطلقت حنجرتها تطالب ببقاء السادات رئيسا مدى الحياة.. وتم تعديل الدستور ليحدث ذلك، لكن السادات مات.. وبالقرب منه فى المنصة لحظة الاغتيال كان يجلس وزير داخليته.. وفى الخلف ليس بعيدا عنهما كانت فايدة كامل موجودة.. وعندما انطلقت نيران خالد الإسلامبولى ورفاقه صوب الرئيس ورجاله صرخت فايدة كامل بصوت نحاسى مشروخ هذه المرة «يا خرابى يا محمد»!!

رحل السادات وجاء مبارك واستمرت فايدة كامل فى الغناء والبرلمان معا.. وصارت من مشاهير السياسة والفن معا.. ولم يحدث أن أطلق اسم منطقة بكاملها على سياسى أو فنان مثلما حدث لفايدة التى صارت صاحبة «منطقة» تمتد من حدائق المعادى وحتى مدخل مصر القديمة.. وبهت الصوت كثيرا فى عصر مبارك والتزمت السيدة بيتها كثيرا.. ولم تعد للغناء سوى عام ١٩٩٨ عندما غنت لمشروع توشكي.. لكن الأغنية والمشروع ذهبا أدراج الرياح.

ذهبت فايدة كامل نفسها التى كانت قد قدمت فى دورتها الأخيرة بالبرلمان مشروعا مهما للحفاظ على تراث السينما المصرية.. لكن المشروع لم يتحول إلى قانون وذهب ذلك التراث لمن يبيع ويشترى فينا.. وها هو تراث الغناء والموسيقى يذهب أيضا ومن

بينه أغنيات فايدة كامل نفسها والتى ستظل رغم كل عورات السياسة واحدة من أهم مطربات مصر والعالم العربى فى القرن العشرين.. مطربة يمكنك أن تقول عنها إنها مطربة الثورة - ثورة يوليو بالطبع - كما يمكن أن تقول عنها وبكل بساطة إنها مطربة الفلول.. فيما أقول إنها.. الفنان والسياسى بكل ما فيهما من تناقضات نظن أنها لا تلتقي!

obeikandl.com

obeikandl.com

خريف العرب قطف وردة!

obeikandl.com

من اللحظة التى واجهت فيها عيونها الدنيا وهى تهرب من السياسة.. لكن الأخيرة ومن اللحظة الأولى أيضا لا تريد أن تتركها فى حالها.. هى وردة الغناء العربى لاشك.. صاحبة التجربة والصوت الذى هو بلا حدود.. إنها وردة محمد فتوحى ابنة المناضل الجزائرى الذى طاردته قوات الاحتلال الفرنسى فى بلاده.. فراح يقاومها فى عقر دارها فى باريس.. وبالتحديد من ملهى ليلى فى حى «موتمارت».. اسمه «تام تام»..

فتوحى صاحب الملهى لم يكن وحده هناك.. كانت معه ابنته التى احتضنتها الدنيا فى يوليو ١٩٣٩.. من أم لبنانية.. الابنة التى ولدت وفى فمها أشواك الاحتلال.. وجدت نفسها وهى ابنة التاسعة تعشق أغنيات أم كلثوم وأسمهان، وجدت نفسها تقف على مسرح خشبى تحته مخازن لأسلحة الثوار الجزائريين.. ولما تم اكتشاف الأمر تم اعتقال الأب.. لتهرب مثلما هرب من قبل وتذهب إلى بيروت حيث أهل والدتها.. هناك عادت لتكمل مشوار حنجرتها الصداحة فى ملهى «طانيوس».. وفى الملهى سمعها عبدالوهاب فى إحدى زياراته.. ليجىء بها لتغنى مقطعاً فى الأوبريت السياسى الأشهر «وطنى حبيبي الوطن الأكبر».. لتكمل بعدها سلسلة من أجمل الأغنيات التى ناصرت ثورة عبدالناصر الذى انحاز للجزائر وناسها وثوارها سرا وعلانية.. والغريب أن وردة فى فيلمها الأول عن عبده الحامولى وألمظ غنت للوطن كذلك ومن ألحان بليغ حمدى «أدعوك يا أمل»..

حضن مصر لم يستوعب حنجرة وردة كثيرا بعد فيلمها الثانى، فقد تزوجت من رجل عسكرى صار فيما بعد مستشارا للرئيس هوارى بومدين هو جمال نصرى.. ذلك الضابط خيرها بين منزلها ودفء الأسرة الذى افتقدته طفلة وحبيبة وبين الغناء.. فاختارت أسرتها لكن بعد ١٠ سنوات كاملة طلب الرئيس بومدين أن تشارك فى احتفال

الجزائر بعيد استقلالها العاشر.. وقيل إنها اتصلت بمعلمها الأول رياض السنباطى لكنه اعتذر ورشح بليغ حمدى بديلا له.. فيما قال آخرون إن أخيها كان صديقا لمحمد حمزة وطلب منه ترشيح ملحن فرشح بليغ.. المهم أن وردة عادت بأمر السياسة لتغنى من ألحان بليغ وكلمات محمد حمزة، ثم يحدث الطلاق لتقرر المجىء للقاهرة.. وفى أولى حفلاتها كانت الأغنية الوطنية حاضرة حيث لحن لها بليغ حمدى «والله يا مصر زمان» إلى جانب «العيون السود» والأخيرة رغم أنها أغنية عاطفية إلا أن أحد مقاطعها يتضمن ولعا بمصر وناسها على طريقة بليغ المعتادة..

ورغم أن وردة عادت للغناء ولمصر فى عام ٧٢، ورغم وضوح أمر ابتعادها تماما عنصر وعن الغناء فى فترة النكسة إلا أن الأقاويل لم ترحمها.. وظلت لوقت تعانى من شائعة ارتباطها بالمشير عبدالحكيم عامر وبمشاركته مسئولية هزيمة يونيو.. وظل الأمر حتى أيام قليلة مضت فيما حاول محبوها تبرئتها بشكل نهائى وهم يرددون أنه وبعد ثورة ٢٥ يناير» لا يعقل أن تظل هذه الأمور سرا.. وقالت إحدى هذه الصفحات إن وردة عادت للجزائر عام ١٩٦٣ وظلت هناك حتى عام ٧٢، ووصفت الصفة من تزوجته وردة بالرجل السادس فى جيش الجزائر..

وربما من المهم الآن أن أشير إلى أن أصل الحكاية يعود ـ حسب كتاب لمحمد رجب ـ إلى أن سيارة المشير وقفت لإنقاذ امرأة شابة تعطلت سيارتها فى دمشق تصادف أن كانت هي السيدة وردة.. وأنه أمر بتوصيلها إلى حيث تذهب لإحياء حفل كانت بصدد المشاركة فيه.. وأنها ـ أى وردة ـ حينما جاءت إلى مصر ذهبت إليه لتشكره على موقفه معها فى سوريا.. وقيل ـ والكلام لنفس المصدر ـ أن تقريرا رفع لعبدالناصر حول هذه العلاقة وأن الأخير خيّر حكيم بين عزله أو إنهاء هذه العلاقة.. وأنه ـ الزعيم ناصر ـ أمر بطردها من مصر.. وتصادف أن غادرت وردة القاهرة ولم تعد فاستمرت الشائعة حتى وقتنا هذا.

لماذا نتحدث عن تلك الحواديت القديمة الآن.. وما علاقتها بشباب يناير؟.. الأمر برمته يعود إلى أن وردة عادت لساحة الغناء بعد غياب دام أربع سنوات كاملة بألبوم

عاطفى كامل.. حاولت فيه التغلب على متاعبها الصحية من ناحية وعلى غيابها من ناحية أخرى.. وردة استعانت بجيل جديد من مؤلفى الأغنيات وملحنيها.. أبسط ما يوصفون به أنهم من جيل يناير.. باستثناء الراحل رياض الهمشرى الذى ضمت وردة إحدى أغنياته التى لحنها لها قبل الرحيل إلى ألبومها.. وعلى جانب كان هناك خالد عز مؤلفا وملحنا وأيمن العطافى واللبنانى مروان خورى..

ألبوم وردة الذى تضمن ست أغنيات لا تناسب سنها على الإطلاق حاول ملحنوه التعامل مع قدرات صوت وردة الآن بكل الطرق فجاء الصوت واهنا ضعيفا يقاوم بصعوبة.. فيما جاءت مضامين هذه الأغنيات خارج سياق الجيل العربى الذى تمرد على كل شىء قبل أن يتمرد على حكامه، حتى إن معظم أغنيات هذه الثورات وبغرابة شديدة حاولت التمرد على الأشكال الموسيقية الشرقية، فأصبح أكثر ما يميز هذه الأغنيات أنها مستوردة تستلهم الراى والجاز والهوب هوب وغيرها من أشكال متفرنجة فى غير موضعها..

كلمات أغنيات وردة الجديدة فى أحسن أحوالها ترصد علاقة الحبيب الذى هجر حبيبته.. والغريب أن إحداها تقول «عدت سنة.. وكل حاجة اتغيرت.. إلا أنا»..

ـ نعم تغيرت أشياء كثيرة فى وطننا العربي.. وبدايتها صوت وردة نفسه.. لم يعد هو لكن مضامين أغنياتها لم تتجاوز أبدا ما غنته من ٥٠ سنة.

المهم أن أقرب هذه الأغنيات إلى ملامح تجربة وردة المنحوتة عبر أجيال من المؤلفين والملحنين والأحداث تقول:

«يا حب مين يشترى
ومين يقول عايز
زمن الأحبة انقضى
وكل شىء.. جايز
واللى يحب بضمير

بتبقى دى جزاته
فى الدنيا يتعب كتير
ويقاضى فى حياته
وآدينى واقفة فى مكانى.. أنا
بس السنين.. فاتوا»

نعم وقفت وردة بتجربتها الجديدة فى هذا الألبوم فى مكانها وتجاوزتها السنون والأحداث.. وربما هذا ما يجعلها هى نفسها تقبل وبدون تردد أن تشارك فى مشروع إحياء الأغنية الوطنية الذى «أمر» الوزير أسامة هيكل بالبدء فيه.. وبدون مقابل.. فربما تفلح الأغنية السياسية التى لا تحبها وردة فى إنقاذها!!

ولكن هل فشل ألبوم وردة لأنه لم يتفاعل مع ما نعيشه أو لأنها تعانى من مشاكل صحية.. أو أنها تكرر قديمها فى ألحان منحونة؟!

أم أن ما جرى من أحداث سياسية ـ ومازال يجرى ـ فى معظم بلدان الوطن العربي يسهم بشكل ما فى تغيير مزاج الجمهور الذى يتلقى الاسطوانة وشريط الكاسيت.. وهل ما يعانيه معظم سكان هذا الوطن من متاعب اقتصادية أيضاً إلى ما يعانيه سوق الكاسيت من قرصنة إلكترونية أسهم كذلك فى تراجع مبيعات الألبوم.. لقد دخلت الثورات العربية أو ما يطلق عليه ذلك الاسم مرحلة الخريف.. فالذين ثاروا نبلا أو احساسا بالظلم تواروا.. ولم يعد الغناء للشهداء يجذب أحدا.. فقد تفككت ائتلافات الثورة مثلما تفكك ائتلاف حمادة هلال ـ اللى كان جاى يجامل ويروح ـ وأصبحت هناك موجة تانية للثورات ولأغنياتها أيضا.. كل ذلك جعل ألبوم وردة بعيدا عن سياقه رغم تأجيل صدوره لأكبر من مرة..

فالابتعاد عن أحداث يناير بمسافة تسعة أشهر لا يعنى على الإطلاق أن المزاج العام أصبح مهيئا لاستقبال قصص الحب القديمة!!

وفى الوقت الذى كان ألبوم وردة الجديدة يعانى من تراجع مبيعاته كانت قصة أغنيتها للقذافى تصعد بشكل مثير لتزيد من صعوبة حالتها.. وكأنها منذورة لمطاردة متاعب السياسة التى لا تحبها على الإطلاق.. ورغم أنها صرحت بأن هذه الفترة التى يعيشها العرب «صعبة» و«خطيرة».. إلا أننى أظنها لم تكن تتوقع أن تنعكس عليها تلك الصعوبة بشكل شخصى وأن يطاردها ذلك الخطر..

قصة أغنية القذافى وهى لمن لا يعرف تعود إلى السبعينيات من القرن الماضى.. فقد تعودت وردة أن تغنى فى احتفالات معظم الدول العربية التى تحررت من الاحتلال بدون أى حسابات سياسية.. وكما غنت «أنا مولودة» فى يوليو لعبدالناصر غنت فى معظم البلدان العربية ومنها ليبيا التى كان يتوافد عليها وقتها عدد كبير من نجوم السياسة والفكر والثقافة والفنون والشيوخ أيضا وبعضهم كان يتعامل مع القذافى باعتباره الثائر الملهم شقيق ناصر.. المهم أن وردة غنت فى حفل شهير هناك من كلمات رجب المذبل وألحان الليبى الأشن محمد حسن» عندما زاد غلا».. وعندما عادت للقاهرة ـ كان ذلك عام ١٩٧٢ فوجئت بأن مطربة منافسة لها أرسلت بشريط الحفل إلى الرئيس السادات الذى كان أوعز لمقربيه من رجال الفن والإعلام أن يهاجموا القذافى لخلافات بينهما، وفيها نشرت أخبار اليوم سلسلة مقالات شهيرة تسخر من القذافى.. وأمام الأمر اضطرت وردة من جديد لمغادرة القاهرة والسفر إلى باريس وظلت هناك حتى تدخلت نهلة القدسى زوجة الموسيقار عبدالوهاب عند السيدة جيهان السادات وأصلحت ذات البين، فعادت وردة لتغنى للسادات مباشرة فى احتفال تجديد ولايته للمرة الثانية.. واستمرت فى دعمها للزعيم المؤمن الذى خاصم الجميع بعد كامب ديفيد لكنها ظلت تغنى له.. مثلما استمرت تغنى لمبارك.. وكانت آخر حفلاتها كارثية حينما انتشرت شائعات بأنها كانت مخمورة وهى تغنى أمام مبارك وهو الأمر الذى حاولت نفيه بكل الطرق لكنها لم تضطر للهروب هذه

المرة فقد هاجمها المرض فعلا وسافرت للعلاج.. ثم عادت لتشهد بعد سنوات مشاهد خلع مبارك ونهاية نظامه.. وظنت أن السياسة صاحتها.. فقررت الغناء «لولاد مصر» ووافقت بلا تردد على عرض وجدى الحكيم بأن تغنى من ألحان وليد سعد وكلمات عوض بدوى:

يا ولاد مصر..
ياللى عشانها كتير ضحيتو يا ولاد مصر
ياللى بمصر الحرة ناديتو
ياللى هتفتم ف التحرير ياللى طالبتم بالتغيير
مصر أمانة فى إيديكم انتو
ولسه هتدوا لمصر كتير
«ولسه على الربابة باغنى»!

والجملة الأخيرة حاولت وردة إضافتها من عندها لتؤكد أنها كانت وستظل تغنى لمصر من ناحية ومن ناحية أخرى لتستفيد بجملة بليغ حمدى «القاتلة» فى أهم وأعظم أغنيات حرب أكتوبر التى كتبها عبدالرحيم منصور «حلوة بلادى السمرا».. لتكرر ما فعله رامى جمال وعزيز الشافعى عندما لم يجدا أية جملة موسيقية تعبر عن أحداث ٢٥ يناير سوى جملة «بحبك يا بلادى» التى كتبها فؤاد حداد ولحنها بليغ فى مجزرة بحر البقر فى فيلم العمر لحظة.. وردة أدركت دون أن تدرى أن جيل يناير بمفرده لا يستطيع إنقاذها ولا إنقاذ أغنيات الثورة ولم تجد سوى حبيبها وحبيب مصر فى كل وقت.. عمنا بليغ فلجأت إليه.. فهل ينقذها ويعبر بها من مطاردات السياسة وناسها مثلما فعلها من سنوات طويلة؟

سر انصراف المصريين عن أغانى «العيال السيس»
الغناء ليناير بدأ بائتلاف حمادة هلال.. وانتهى بنواب أحمد عدوية!
مبادرة الغناء بأمر الوزير ماتت فى الاستوديو..
عمرو مصطفى يحارب منفرداً فى جيش «الثورة المضادة»

فى العيد الأول للثورة.. الغناء ممنوع!

obeikandl.com

انتهى العام لا شك.. انتهت الثورة ربما.. فالذين يزعمون أنها موجات متتالية لا يعرفون متى تتوقف هذه الموجات ولا فى أى نهر ستصب.. والذين يتخوفون من الفوضى لا يعرفون مثلهم إلى متى..انتهى العام إذن.. هذه هى الحقيقة الوحيدة.. وذهب مئات الشهداء.. وبعضهم وجد من يشكك فى نسبه إلى الشهادة ويضيفه إلى سجلات البلطجية..

انتهى العام والشك والريبة يعششان فى كل الأدمغة.. وعجلات التخوين لا تتوقف عن الدوران.. وانقسمنا إلى ثوار وعملاء.. وجمهور يلعن الجميع..

انتهى العام إذن.. هذه هى الحقيقة الوحيدة.. وذهب مئات الشهداء

انتهى العام ولم تعد حناجرنا قادرة على الغناء.. فعندما ينبت «الحلفاء».. تتوقف المشاعر عن النبض.. ويتوقف الغناء..

الأوّلة.. أنا جاى أجامل ومروّح

المفاجأة كانت كلمة السر بالنسبة للجميع فى مصر صباح ٢٥ يناير الماضى.. أحزاب وسياسيون.. شيوخ وفنانون.. يساريون وعلى اليمين.. أبناء النظام ومن هم ضده.. الجميع أُلجمتهم المفاجأة إلا قليلاً.. ومن هؤلاء عدد من نجوم الغناء كانت فكرة التمرد والعزف ضد ما هو سائد هى أبرز ملامح تجربتهم وفى مقدمتهم محمد منير.. الذى لم يجد المتظاهرون من أغنيات تعبر عنهم فى اللحظة الأولى سوى أغنيته «ازاى» التى كانت معدة سلفاً قبل يناير بأشهر.

وبمجرد رحيل مبارك وتخليه عن السلطة.. تفرق المتحدون فى الميدان بحثاً عن قطعة من الوطن كل يريد «وضع يده عليها».. ربما تكون فى شركة.. أو فى منصب رفيع.. أو

فى برنامج على الشاشة.. وبالطبع كان المطربون فى مقدمة المشهد.. ولأن الشهداء كانوا وقود الأيام الأولى، ولأن الدم هو أغلى ما يمكن أن تهتز له المشاعر.. كانت الأغنيات الأكثر رواجاً فى الأشهر الثلاثة الأولى التى أعقبت يناير هى أغنيات الشهداء وفى المقدمة منها كانت أغنية حمادة هلال «شهداء ٢٥ يناير.. ماتوا فى أحداث يناير.. ماتوا وفارقوا الحياة». وبعيداً عن السخرية من كلمات الأغنية التى تتعارض أصلاً مع فكرة الشهادة التى تعنى الخلود والحياة الأخرى تماشياً مع النص القرآنى «ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون».. وبعيداً عن «تفاهة» المضمون المتناقض. فإن حمادة هلال نفسه كان صادقاً فى طريقة تعبيره كمطرب شعبى معروف بأنه الأبرز فى عالم الأفراح. وعلى طريقته جاء الرجل ليجامل فى الفرح.. «أنا جاى أحامل ومروح» ومثلما انعقدت عشرات الائتلافات التى تتحدث سياسياً باسم الثورة.. خرجت عشرات الأغنيات التى تندرج تحت لواء ائتلاف حمادة هلال. بعضها قديم تم إبراره «شوطات من الميدان». ومنها أغنية «الشهيد» لعلى الحجار من كلمات الأبنودى وألحان أمير عبدالمجيد. و«صوت الشهيد» لهانى شاكر.. و«تشبه لين» لمحمد فؤاد.. أما الأغنية الأبرز والتى أصبحت نغمة يناير وحولها الشباب إلى رنات موبايل فكانت «يا بلادى» وهى الأغنية المكتوبة على لسان كل شهداء يناير إلا أن سر نجاحها كان حتماً هو المقطع اللحنى الأول لها المأخوذ من أغنية فيلم «العمر لحظة» لسيد حسدى وفؤاد حداد.

واستمر الغناء ليناير والميدان والتحرير.. وتكررت هذه الكلمات فى عشرات الأغانى على لسان نجوم الغناء باختلاف تمايزاتهم ومستوياتهم الفنية.. غنى الحجار «فى الميدان».. من كلمات ناصر رشوان.. وغنت أنغام من كلمات إسلام حامد.. وغنت غادة رجب ليوم خمسة وعشرين. وغنى حمزة نمرة للإنسان.. الذى أصبح له هدف

وغاية.. وبرغم كل هذه الجحافل الغنائية التى تسابقت إلى الاستوديوهات بوعى أو بدون وعى.. انصرف الجمهور سريعاً إلى عبدالحليم حافظ واستعادو بعض أغنياته مثل «ثورتنا المصرية.. وصورة.. وإحنا الشعب»، وأغنيتى أم كلثوم «أنا الشعب.. ومحلاك يا مصرى».. ومجموعة أغنيات الشيخ إمام التى تصادف عرض فيلم الفاجومى حاملاً بعضها «بقرة حاحا.. جيفارا.. يعيش أهل بلدى».. وبالطبع:

«كل ما تهل البشاير
من يناير كل عام
يدخل النور الزنازن
يطرد الخوف والضلام».

ورويداً رويداً انقسم الميدان.. بين الدستور أولاً والانتخابات أولاً.. بين اليمين واليسار.. وخرجت التيارات السلفية من جحورها.. وركب الإخوان الموجة.. وقلق الأقباط.. ولم تعد مصر واحدة بأى حال.. اختلفنا كالعادة.. فكان أحمد سعد والشيخ إمام ونجم حاضرين بقوة وبقسوة..

«يعيش أهل بلدى
وبينهم مافيش
تعارف يخلى.. التحالف يعيش
ونعيش كل طايفة
من التانية خايفة
وتنزل ستاير.. بداير وشيش»..

ونزلت ستائر الثورة فعلاً وكتب عادل حمودة فى صحيفة الفجر أن الثورة ولدت فى

يناير.. وماتت فى مارس وستدفن فى سبتمبر. ولم يكن حمودة يكتب من فراغ ولكن لأن الشارع كانت أغنيته قد تبعثرت فعلاً.. ولم تأخذ محاكمات مبارك ورجال نظامه الناس من مخاوفهم سوى لأسابيع قليلة، ليبدأ الصدام بين «حماة الثورة.. وثوارها»..

وانتشرت رسائل التنويه.. فهناك ثورة.. وثورة مضادة.. وكان من الطبيعى أن تتم تصفية مطربين وملحنين ارتبطوا بالنظام السابق.. حتى من تحول منهم ونزل الميدان على طريقة عمار الشريعى.. وفى المقدمة من هؤلاء ظل عمرو مصطفى الذى لحن واحدة من أجمل وأشهر أغنيات آخر أيام مبارك «ماشربتش من نيلها».. ظل مصطفى مخلصاً لمبارك.. ورأى أنه إنسان حافظ على بلاده، وأن كل ما جرى هو لعبة أمريكية.. واستمر عمرو مصطفى فى عناده يحارب وحده فى جيش «الثورة المضادة»..

الجرىء.. وكلامنجية الفضائيات

ربما لا تعجبنى موسيقى عمرو مصطفى.. ولا أراه واعياً سياسياً بالقدر الذى يجعله واحداً من الذين ارتبطوا بهذه الأغنيات فى مصر والعالم العربى.. لكنه وبدون شك موجود كواحد من أبرز ملحنى جيل التسعينيات فى مصر، ويحسب له دائماً أنه الأقدر على التعامل مع حنجرة «السوبر ستار» من نجوم هذا الجيل: عمرو دياب ـ حماقى ـ شيرين وغيرهم.. وفى الوقت نفسه أحترم موقفه الذى يصر عليه.. فهو من قلائل لم ينافقوا ثوار يناير.. ولا يزال حتى هذه اللحظة يرى فيما حدث فوضى فى مقابل الاستقرار الذى يريده لنفسه ولأسرته.. وفى هذا السياق كانت المفاجأة أن يلحن ويغنى واحدة من أبرز الأغنيات التى سبحت عكس التيار، من كلمات الرائع دائماً بهاء الدين محمد.. جرأة عمرو وبهاء دفعتهما للسخرية من نجوم الفضائيات الذين يناضلون خلف الكاميرات وأمامها لكنهم لا تطالهم أبداً لا طوبة ولا خرطوش ولا رصاص مطاطى.. يهاجمون

الجميع.. وحينما تحدث المصيبة من ماسبيرو لمحمد محمود لمجلس الوزراء.. تجدهم يتنقلون عبر الشاشات يحللون ويحللون وكأنهم فى «استاد الثورة» أو فى «الاستوديو التحليلى لمباراة يناير».. هؤلاء من غنى عمرو مصطفى عنهم منتقداً غنائهم ضدنا:

وباتفرج ع الناس..
اللى ليل ونهار بتتكلم
كلام عادى.. كلام فاضى
وده قاضى.. وده معلّم
ولا بيفيد ولا بيضيف
وشكل الضيف.. ياريته نضيف
ومصر يا عينى مجروحة.. ومدبوحة.. بتتألم..
ناس كتير.. مالهاش لزوم
قلبهم.. مخزن.. سموم
واجعين دماغنا كل يوم..
والثورة عملتهم.. نجوم!!

ومثلما سيطر هؤلاء النجوم على المشهد الفضائى.. سيطرت موسيقى الراى فى مفارقة مدهشة على معظم أغنيات الربيع العربى.. لتتماشى مع ما يدعيه عمرو مصطفى عن أن هذه «الانتفاضات ثورات مصنوعة بأياد غربية» وهو رأى يتبناه الآن سياسيون كبار فى مقدمتهم محمد حسنين هيكل الذى تحدث عن «سايكس بيكو» جديدة.. هذا المشهد الانقسامى أوصلنا إلى حالة من الزهق تجاه أغنيات من عينة «صوت الحرية بينادى».. لفرقة وسط البلد.. أو أغنيات أحمد مكى «الكوميدية جداً»..

obeikandl.com

وبقيت أغنيات قليلة تعافر وسط ذلك الطحن أغلبها قديم مثل «حدوتة مصرية» لمنير.. و«عم بطاطا» لعلى الحجار.. و«يا أم الصابرين» و«يا حبيبتى يا مصر» لشادية.. مثلما استعادت أغنيات عدد من الأفلام الشهيرة مثل «البرىء» .. و«كتيبة الإعدام» بصوت «هدى عمار».. ودخلت الانتخابات وأغنياتها على الخط فى لحظة كان الجميع فيها قد زهق.. ولم يعد للكثيرين منا سوى الانتخابات كخطوة نأمل أن تخرجنا من ذلك العبث الذى وجدنا أنفسنا فيه أيا كان من هو المخطئ.. فجميعنا مخطئون بقدر.

المجلس العسكرى تكية

فى الوقت الذى كانت فيه قوى سياسية قد خرجت من سكون تام.. تستعد بمليارات الجنيهات لحصد نصيبها من الكعكة.. كان هناك من يفكر بحسن نية فى توثيق المشهد عن طريق الغناء.. وخرجت مبادرة الوزير السابق أسامة هيكل لإحياء الأغنية الوطنية وسماها فى رواية أخرى «الأغنية الراقية».. ولم يحدث أن أحيا هذه ولا تلك.. ورغم تبنى المبادرة من قبل بعض المتخصصين فى الغناء الوطنى وفى مقدمتهم الإعلامى وجدى الحكيم.. فإن التصور الخاطئ والرؤية المشوشة ذهبا إلى طريق ونتيجة متشابهين.. فأنتجت عشرات الأغنيات التى لم يسمع بها أحد رغم أن عدداً من الحناجر المهمة سارعت بالموافقة.. انتهى الأمر بمجموعة أغنيات لم يسمع بها أحد سوى مذيعى الربط فى الإذاعات المصرية التى تذيع ما يملى عليها.. والفكرة ماتت فى المهد للتفكير فيها بعشوائية وفجائية ودون تقدير للظرف السياسى الراهن وخريطة الجمهور الذى يتلقى.. فالأمر لا علاقة له بنكسة ٦٧ التى كان العدو فيها محدداً وفى أكتوبر ٧٣ كذلك.. يناير تحول إذن إلى مناسبة.. وتحولت أموال ماسبيرو المديون أصلاً إلى أغنيات باهتة ماتت فى طرقات استوديوهاته قبل أن تتنفس..

وجاءت الانتخابات بأغنياتها.. والغناء لمرشحين أو لأحزاب ليس بالأمر الجديد فقد غنى عبدالحليم حافظ لأحد أعضاء الضباط الأحرار فى انتخابات عام ١٩٥٧ والذى خاض الانتخابات فى دائرة قصر النيل (مجدى حسنين).. وغنى آخرون من بعده.. أشهرهم محمد نوح الذى غنى منذ سنوات للوفد من ألحان كمال الطويل الذى كان نائباً عن الحزب فى البرلمان فى يوم ما. الانتخابات الجديدة التى بدأت فى ٢٨ نوفمبر استدعت أغنية محمد نوح رغماً عنه لكن المفاجأة أن أحداً لم يقبلها.. وخذلت الأغنية أصحابها مثلما خذل الوفد بارتباكه قوى كثيرة كانت تعتبره فرس الرهان.. فى هذه اللحظة خرج علينا أحمد عدوية الذى اعتبره اليساريون فى أيام السادات م لربهم ومطرب البرجوازية المصرية.. عدوية هذه المرة جاء ليغنى فى مبادرة لعدد من سيدات المعادى ومن ألحان محمد رحيم أغنية يقال إنها للتوعية السياسية «يعنى إعلان انتخابى»، ولكن ليس لصالح نائب بعينه أو لحزب بعينه.. عدوية لم يتقاض أجراً ومثله الملحن محمد رحيم والموزع أحمد العسال.. وأصبحت أغنيتهم «الغايب مالوش نايب» شاهداً على أول انتخابات تجرى فى مصر بعد ثورة يناير:

«يا نازل السوق.. يا تاخد م المليح يا بلاش
وتحط عينك يا ابن بلدى.. على شىء يعجبك يا بلاش
انسى انتخابات زمان.. لمجلس مش تكية
التصويت يا جدعان.. محتاج لمفهومية».

وقبل أن نصل للمرحلة الثالثة من هذه الانتخابات.. فقد الكثيرون رغبتهم فى متابعتها بعد المشهد المذهل الذى صاحب بدايتها بإقبال غير مسبوق من عجائز وشيوخ وشباب وفتيات.. لكن المشهد الانتخابى ضاع بين مشهدين، أحدهما عرى علياء المهدى التى أرادت أن تصدمنا حسب كلامها بحثاً عن «الحرية» بأن تعرت تماماً على

مدونتها، والثانى للفتاة التى تعرت سحلاً فى ميدان التحرير.. وما بينهما مشاهد متتالية للتعرى.. سواء من قبل الإخوان الذى رفعوا شعار «المشاركة لا المغالبة» ثم نزلوا بثقلهم للحصول على الأغلبية.. بين منازلة العسكرى والتلويح له بعصا الانقلاب عليه.. أو عرى شيوخ السلفية الذين لم يجدوا فى نجيب محفوظ سوى «النساء العاريات».. أو عرى دعاة الليبرالية الذين قبلو دور المحلل للإخوان المسلمين وهم ترشحوا على قوائمهم للحصول على مقعد..

لم تنته مشاهد العرى بعد.. وفاجأتنا رأس السنة ليختفى الغناء من المشهد رغم أن بعض من احتفينا بغنائهم فى يناير أنجزوا أغنيات أكثر قوة فى ديسمبر ومنهم محمد منير الذى غنى «لبلاد العرب» لكن العرب مشغولون عن غنائه.. ومثله مدحت صالح الذى غنى فى فبراير للجان الشعبية.. وهو يغنى الآن من كلمات محمد الطيب.. وألحان أحمد المداح:

«فكيت بقى المتخيط.. وحلفت بربى لاغيّر.. جلدى المحتاج تغيير.. وخلاص مش ح اسكت تانى..

لسنين كانت وجعانى.. وصبرت عليها كتير..

مابقتش قادر أخبّى.. والجرح زاد فى قلبى.. وتعبت من «التخيير».

دمّى فى عروقى فاير.. ونبض فى قلبى ثاير.. بيدورع المصير..

جميعنا يبحث الآن عن المصير.. كل الذين بدأوا بالغناء والهتاف والبكاء فرحاً أو حزناً يبحثون عن مصير هذا البلد وناسه.. هذا مؤكد تماماً مثلما هو مؤكد أن أغنية يناير ماتت ولن تحتفل حتى بعيد الثورة الأولى.. لأن ما بين الفوضى والثورة مئات من الجثث.. والأغنيات الميتة!!..

المراجـــع

١ - مذكرات عبد الحليم حافظ	إيرس نظمى
٢- صوت مصر	فرجيشا دانيلسون ترجمة د. عادل عنانى
٣- أم كلثوم	د. نعمات أحمد فؤاد
٤- الاتجاه القومى فى الأغنية الوطنية	د. مصطفى عبد الغنى
٥- كيف سقطت الملكية	محمد عودة
٦- أعز الناس	مجدى العمروسى
٧- الملف السرى فى حياة عبد الحليم حافظ	محمد حمزة
٨- عبد الوهاب الذى لا يعرفه أحد	محمود عوض
٩- أشهر مائة فى الغناء العربى	محمد سعيد
١٠- صديقى الموعود بالعذاب	مفيد فوزى
١١- شادية من الطفولة إلى الحجاب	محمد حمزة
١٢- أول ثروة على الإقطاع	د. محمد العزب موسى
١٣- المغنى	طاهر البهى
١٤- شخصيات لها تاريخ	د. جلال أمين
١٥- مذكرات الشيخ إمام	أيمن الحكيم
١٦- صندوق الموسيقى	مجدى نجيب
١٧- الشيخ إمام فى عصر الثورة	أمير العمرى
١٨- الإغنية السياسية الجديدة فى الوطن العربى	رجب أبو سرية
١٩- قنابل ومصاحف	عادل حمودة
٢٠- الجيل الذى واجه عبد الناصر والسادات	د. هشام السلامونى
٢١- بالعربى الجريح	محمود عوض
٢٢ - السجن دمعتان ووردة	فريدة النقاش

obeikandl.com

كأنها سيرة ذاتية

- محمد العسيرى... مواليد سوهاج ١٩٦٧
- نائب رئيس تحرير مجلة الإذاعة والتليفزيون
- عمل فى صحف روز اليوسف - الجيل - صوت الأمة..
  وترأس عدداً من الصحف الخاصة والمستقلة
- صدر له: للبيوت شهوة تزلزنى
  ديوان شعر بالعامية
- كتب العديد من الأغنيات لمطربى مصر والعالم العربى فى مقدمتهم
  على الحجار ومحمد الحلو وهدى عمار
- ترأس تحرير عدد من البرامج التليفزيونية بقنوات:
  الراى الكويتية - القدس الفلسطينية- النيل للأخبار
- له تحت الطبع: عتبة قديمة تشبهلى
  ديوان شعر
  الأغنية السياسية فى مصر
  دراسة وثائقية
- حصل على جائزة نقابة الصحفيين عام ٢٠٠٢
- حصل على جائزة الصحافة العربية من دبى عام ٢٠٠٣

obeikandl.com

فهرس

الموضـــوع	الصفحـة
بدون مقدمات	4
عبد الحليم لم يكن مطرب الثورة!	5
شيرين مطربةالعهد البائد!	13
الذين غنّوا للرئيس	21
مطرب الرئيس.. من العندليب إلى شعبان عبدالرحيم!	31
فصل الختام فى قصة مطربى النظام	43
أغنية المقاومة فى عصر مبارك	53
حرب عم بطاطا.. مع كتكوت والرئيس.. وتنظيم الجهاد حفيد سيد درويش غادر الإسكندرية	63
بعد أن احتلتها الجماعات الإسلامية.. وأباطرة الميناء	73
لماذا لم يذهب منير إلى ميدان التحرير؟!	83
وجيه عزيز.. «أغنية جيل على باب الله»	93
حيثيات ضرب تامر حسنى فى «حضرة» الشيخ إمام!	105
لماذا هجر الفاجومى السجن والغناء فى عهد مبارك؟	115
السطو على بليغ حمدى فى قلب الميدان	125
أبو صلاح.. شاعر الثورة الذى قتلته زوزو	135
على الحجار.. طالع شجر الحرية	145
سيد حجاب.. صياد الأمل والحور	155
فى وداع فايدة كامل.. مطربة الثورة.. والفلول!!	163
خريف العرب قطف وردة!	171
فى العيد الأول للثورة..الغناء ممنوع!	179
المراجـــع	189

obeikandl.com